المهجر
المغرب
الجزائر
تونس

ليبيا
مصر
السودان

حكاية الأدب العربي المعاصر

خالص عزمي

مكتبة لسان العرب
أ. علاء الدين شوقي
www.lisanarb.com

خالص عزمي

حكايات
الادب العربي المعاصر

HR JUN 19 1974 297642

المقدمة

لا شك ان فى المكتبة العربية العديد من المؤلفات والمباحث فى الادب العربى الحديث تمكن الدارس والمتتبع الافادة منها والنهل من منابعها . الا اننى وجدت ان طريقة المسح الجغرافى للادب المعاصر تسهل على الكثيرين تقصيه وربط اجزائه فى حلقات تقرب من فكرة وحدة الادب فى مراميه واهدافه ، اذ من المتعارف عليه ان الادب العالمى ما زال يقيم ويدرس على اساليب مختلفة التفرعات تلتقى اما عند اللون الفنى للعمل الادبى ، أو الموازنة الشخصية للنتاج ، اوالترابط التاريخى لمجمل التكوين الادبى عند أمة من الامم . الا ان اختيار أسلوب المسح الجغرافى هذا يوصل حتما بين تلك الاساليب مجتمعة الى جانب المزج المتكامل بين قطبى النظرية والتطبيق العملى للادب فى آن واحد .

ولعل من اهم الاسباب التى دفعتنى الى وضع كتابى هذا ما لاحظته من ندرة المصادر التى تبحث فى ادب المغرب العربى بشكل خاص وما لاحظته ايضا من بعد صلة ادباء المشرق العربى بالنتاج الادبى الرائع الذى وضعه ادباء المغرب فى القصة والمسرحيةوالرواية والشعر والنقد وما الى ذلك من فنون الادب المختلفة . ومن هذا المنطلق السببى لاح لى اشعاع بعيد المدى هز فى خاطرى تطلعات المزيد من المعرفة المقرونة بالبحث عن ذلك المجهول الذى نريد استقصاء حقيقته فى اعمال ادباء العربية البارزين على امتداد الوطن العربى .

والذى لابد من ايضاحه هنـــا : ان التركيز قد شـــمل مجرد المعنى التعريفى لا البحث المقارن ضمن اطار حكاية الادب العربى المعاصر • وهو معنى عاش الجو السياسى والثقافى والاقتصادى الذى كان لــه اثره الواضح على الادب العربى ، ومن ثم على المسالك التى طرقهــا ادباء العربية فى الوانهم الادبية ذات الوجوه المتعددة : وهى الــوان اخترت منها اجود النماذج لبعض النتاج غير المعروف الا فى حدود ضيقة، تلك الحدود التى تقف سدا دون شمولها المكتبة العربية •

وفى هذا الجزء من الكتاب سنتناول حكاية الادب العربى المعاصر فى كل من (المهجـــر ، والمغرب ، والجزائر وتونس ، وليبيـــا ، ومصر ، والسودان) وسيكون الجزء الثانى منه مخصصا للادب العربى فى (لبنان ، سوريا ، الاردن ، فلسطين ، العراق ، الكويت ، امارات الخليج العربى والجنوب العربى) اضافة الى فصل خاص عن الادب العربى بعد نكسة حزيران ١٩٦٧ •

وسنتوصل من دراسة الادب العربى فى هذه المناطق الى ان هناك ترابطا عميقا فى التيارات السياسية والعطاء الفنى ، جمع بين اطرافها فمهد لاحياء تراث الادب اولا ودفع به ثانيا الى مجالات اوسع واعـم وفتح الابواب لكى يلج الى ساحة الادب العالمى بيسر •

ان الصراع الحاد المتحدى الذى مارسه عن وعى وايمان ابناء الشعب العربى عبر قرن من الزمن لارساء قواعد حرياتهم الشخصية وتطوير حياتهم الى الافضل ، وان النضال الدائب العنيد الصبـــور الذى خاضه هذا الشعب على مختلف المستويات والاتجاهات من اجل الاستقلال ، ونسف الحدود المصطنعة ، وتكوين الرأى الموحـــد القادر على ايجاد قوة تثبت مواقعها وتنطلق الى عالم اوسع واعم فى ساحة التحرر ، انما تعطى تاكيدا واقعيا على مدى التلازم السياسى فى صراع ابناء الامة الواحدة ضد العدو المشترك • ثم هناك الترابـــط الفنى

الذى ياخذ مظهره الواضح فى الاعمال الادبية التى طلع بها ادبـاء العربية فى مختلف اقطارهم او كما يقول توفيق الحكيم : (ان ادبنا العربى ليس ادب مراحل بل ادب موجات متداخلة) . فالتدرج فى الصياغة الفنية والاعتماد على التراث ، ومحاكاة الجيد منه ، ثم الاعتماد عـلى الترجمة فى نقل أوجه التيارات الجديدة فى الادب العالمى ، وبالتالى الافادة من الافكار الحديثة واللغة العصرية المعتمدة على الاحسـاس بالكلمة لا بأنشائها ، كل هذه قد فتحت المجـال امام الادب العربى الحديث ليطعم الوانه المختلفة بأساليب وانماط لم يالفها من قبل . وبهذا سلك سلوكا موحدا وابان بوضوح تام عن الترابط الذى شـد هذا اللـون من الادب الى ذاك ، فأفاد بعضه البعض الآخر ودفع بـه الى التطـور .

خالص عزمي

الادب المهجري

حينما عصفت ريح الازمة الاقتصادية في الحرب العالمية الاولى بكثير من نشاطات الفرد اللبناني وجعلته اسير الفاقة والضنك ، تراءى لبعض ابناء لبنان ان في المغرب البعيد مشرقا لامالهم ومطامحهم ونسيما للحياة المتدفقة بالغنى والاطمئنان .

وكان من بين الذين هاجروا الى الامريكيتين اناس كانت لمحات الادب والفن والاصالة في الذوق تحرك في ارواحهم مفاهيم جديدة لمعنى الحياة ، وتجعل من المادة سبيلا للتعبير عن تدفق الحرف النبيل . ولهذا فقد انكبوا على العمل في التجارة والصناعة حينما يصبح الفجر . وعلى الادب والشعر والفن اجمالا حينما يحل المساء . وكان هذا الصراع ، بين العمل المادي والعمل الفكري ، يتبلور تدريجيا حتى اضحى من مظاهر حياة المهاجرين . ومع ان بعضهم قد اصابه الغنى وانفتحت ابواب الحياة الجديدة امامه الا ان الحنين الى الوطن كان التعبير الاساس عن كل فكرة وكل اسلوب في انطلاقاتهم الادبية . وهذا ما عبر عنه الشاعر فوزي المعلوف بقوله :

قسما بأهلي لم افارق عن رضى
اهلي وهم ذخري وركن عمادي
لكن انفت بأن أعيش بموطني
عبدا وكنت به من الاسياد

ولعل دافع الحنين هذا قد جعل الكثيرين من ادباء المهجر ومن بينهم جبران ونعيمة والريحاني يترجمون من الشعر الشعبي ذي الجرس البديع والاخيلة الواسعة الى اللغة الانكليزية اعترافا منهم بحبهم الى لغة بلادهم .

وكان هذا الحنين ينغص على الاديب المهجري حياته الوادعة ويفتح بنفس الوقت أمامه مغاليق الاحاسيس الدفينة فيعبر عن مشاعره باسلوب اخاذ ويسر .

فهذا ميخائيل نعيمة يقول :

ما انا يا ملاكي السعيد   غير طيف شريد
علمته الحنين   عاديات السنين
فاستطاب الانين   واسترق النواح

صفقي صفقي يا رياح

يا ملاكي الا من مآب   لطريد براه العذاب
ان يعز الرجوع   أفلا من هجوع
لغريب الربوع   يا ملاك الصلاح

ولولي ، ولولي ، يا رياح

وفي هذا الحنين يقول زكي ابو شادي :

يسألوني لم ارتحلت كأني
لم اجبهم بسيرتي نصف قرن
شادياً بالطليق من شعري الباكي
اغني لمجدهم ما اغني
وحياتي لعزهم في كفاح

ككفـــاح الشـعاع في وســـط دجـن
وتبلغـــت بالعـــذاب وبالبــــؤس
مـرارا وكـــل حظـي التجنـــــي
وكــاني وحـــدي المســيء باحسا
ني لعصـــرى اوانـــه لـــم يســـعنى
فترحلـت حـين يحتـــرم الاحـــرار
حيـث الهـــواء طلـق لذهنـــــي

وفي نفس المعنى يقول الياس فرحات احد البارزين من شعراء المهجر الجنوبي :

وطني حببتـــك ســـيداً ومســـودا
وحببـــت اهـــلك عوســـجاً وورودا
ابغي لهـــم رتـب العـلا ولـــو انهـــم
تخذوا على جســـدي الطريق صعـــودا

اما عمر ابو ريشة فيقول :

يا مغـــاني لبنـــان هل هجـــع الســـ
ـــمار وانفض عقـــدهم يا مغانـــــي ؟
ايـــن نـــاد لنـــا ســـهرت عليـــه
والليـــالي مطروقـــة الاجفـــان
غمرته المنـــى فليـــس لنـــا مـــا
نتمنـــى فـــي ظلـــه الجـــذلان

كـــل ارجائـــه مـــن المتـــع البيـض

ثغـــور تصيـــح يا مـــن يرانـــي

وهذا ايليا ابو ماضي يصف ذلك الحنين الموجع بابيات فيها حرمان ولوعـة الغربـة :

وليس مـــا بـــي يـــا رب داء

ولا احتيـــاجي الـــى دواء

ولا حنينـــي الـــى القنـــاني

ولا اشـــتياقي الـــى الظبـــاء

ولا اريـــد الـــذي الغـــيري

ذا حـــكمة كـــان أم مضـــاء

لـــكن امنيـــة بنفـــسي

يســـترها الخـــوف والحيـــاء

فقـــال : يا شـــاعرا عجيبـــا

قـــل لي اذن مـــا الـــذى تشـــاء

فقلـــت يـــا رب فصـــل صيف

في أرض لبنـــان أو شـــتاء

فانـــني هـــهنا غريـــب

وليس فـــى غـــربـة هنـــاء

وهذا ندره حداد يصف لواعج الشوق بابيات فيها قوة وصفاء الرابطة التى تشده الى موطنه لبنان :

أيها الاتي من الاوطان والاوطـــان حلـــوه
لـم اجـد عنها وان طـال زمان البعد سلوه
وطن أوجد مذ فارقتـه في القـلب جـــذوه

الا انمظاهر هذاالادب المهجرى بالاضافة الى ذلك الحنين المميز، التامل ، والقلق والغور الى بواطن النفس الانسانية يستخرج الاديب المهجرى من كنوزها آيات من التعبير الامين تهز فيه اللوعة والحيرة فيبتعد كثيرا عن صخب المدنية متجها صوب البراءة والطفولة والغاب والبرارى يبثها اقدس ما عنده :

ولعل الشاعر الدرويش رشيد ايوب قد احسن وصفا حينما قال:

جلسـت في الروض وحـدى عند ساقيـــة
يـردد المـــاء فيها صـــوت الحـانى
والزهـــر فـاح شـــذاها في الفضاء كمـا
يفـوح شـعري من روحـــي ووجـــدانى

او كقول جبران متاملا الحياة التى تحيطه محاولا ربطها بالتداعى النفسى الذى يبعث فيه القلق والاسراف فى الخيال المجنح :

ليـت شـعري هـل لمـا مـــر رجـــوع
أو معـــاد لحبيــــب او اليـــف
هـــل لنفســي يقظـــة بعـــد الهجـوع
لتريـنـي وجـه ماضـــي المخيـــــف
هل يعي ايلـــول انغـــام الربيـــع

وعلى اذنيه اوراق الخريف
لا فلا بعث لقلبي او نشور
لا ولا يخضر عود المحمل
ويد الحصاد لا تحيي الزهور
بعد ان تبرى بحد المنجل

ولعل من ظواهر الادب المهجرى ايضا ، التشاؤم ٠ ومرده ذلك الصراع بين الحياة فى العالم الجديد وبين العودة الى الطبيعة ، الى الحياة الريفية البسيطة ، وقد عبر ميخائيل نعيمة عن ذلك بقوله :

اخي من نحن لا وطن
ولا اهل ولا جار
اذا نمنا اذا قمنا
ردانا الخزي والعار

أو كقوله ايضا :

وسنبقى فى انتقال وعذاب
وصعود وهبوط وذهاب واياب
وسنبقى نهجع الليل وفى الصبح نفيق
ريثما نلقى منانا ، ريثما نلقى الطريق

أو كقول شكر الله الجر :

قلق القلب معذب
ليس يدرى اين يذهب

ضـاق صـدر الكون عنه
حيث صـدر القبـر ارحب
قـد جفاه الصحب والاحباب
حتـى الام والاب
كيف لا يطلب بعـد اليأس
عطـف المقبره

او كما عبر عن ذلك جبران بقوله (انا غريب فى هذا العالم . انا غريب . وفى الغربة وحدة قاسية موجعة تجعلنى افكر بوطـن سحرى لا اعرفه . انا غريب وقد جبت مشـارق الارض ومغاربها فلم اجد مسقط رأسي ولا لقيت من يعرفنى) .

لقد استطاع ادباء المهجر ان يجعلوا من كل تلك الظواهـر والمميزات ادوات مطواعة بايديهم يشقون بها طريقا جديدا فى مجاهل الحرف النير والكلمة المطواعة ، حيث يغورون الى اعماقهم يتأملون ما فيها ، فتخرج عند ذاك قصائدهم وقصصهم وحكاياتهم متحررة من كثير من القيود اللغوية والمعانى المركزة والاجترار الذهنى .

ومع أن ادباء المهجر الشمالى كميخائيل نعيمة وايليا ابـى ماضى وامين الريحانى ونسيب عريضة ورشيد ايوب وعبدالمسيح حداد وندره حداد ووليم كاتسفليس وغيرهم قد تحرروا شيئا من قواعد اللغة الى حد جعلهم فى موضع نقد شديد ، الا ان ذلك لم يحد مـن الثورة العارمة التى احدثوها فى مفاهيم الادب والفكر والفن .

وليس ادل على هذا الايمان (بالتحرر) مما اورده ميخائيل نعيمة فى مقاله (نقيق الضفادع) فى معرض دفاعه عما اسماه (بالتطـور والتكيف) فى اللغة وبه يرد على اولئك المتزمتين المعتقدين بأبقـاء القديم على قدمه حيث يقول [.. الا يرون ان اللغة التى نتفاهم بها اليوم فى مجلاتنا وجرائدنا ومن على منابرنا هى غير لغة مضر وتميم

وحمير وقريش ؟ الا يرون انه لو اتيح لاسلافهم تقييدنا منذ الفي سنة لما كان لنا حتى اليوم لغة سوى لغة الحيزبون والدردبيس والطخا والنقاخ والعلطبيس ؟ بل كنـــا نقول « العسـلوج » بدل العصا ، « الاسفنط » بدل المدامة و « الخنشليل » بدل السيف و « الفدوكس » بدل الاسد ؟ وان المتنبي لو نظم قصائده بلغة اصحـاب المعلقات لكان ذكرا جميلا لا قوة حية في آدابنا . ؟ وان ابا العلاء لو نظم «غير مجد في ملتي واعتقادي » بلغة درعياته ورسائله لما كانت لنا «غير مجد» ؟ وان شعراء الاندلس لو تحدوا في نظمهم الجاهليين والمخضرمين لمـا كانت لنا موشحات الاندلس ؟ اذا كانوا عميانا عن كل ذلك فدواؤهم في الطب لا في الادب . لان الغشاء الذى على ابصارهم لا يزيلــه الا مبضع الجراح ، اما قلم الكاتب فليس ليخمشه خمشا » .....

وفي المقال نفسه يوضح ميخائيل نعيمة معنى ذلك التحرر حينما يمسك بتلابيب احد الذين انتقدوا قصيدة جبران « المواكب » . فيقول (.... وقد عثر فيها الناقد على هذا البيت :

هل تحممت بعطر وتنشــفت بنــور

فاثبته ووضع بعد كلمة « تحممت » كلمة « كذا » وبعدها علامة استفهام . وان شئت فقل علامة استغراب . كان الناقد يقـــول للقارىء « انظر هو يقول » « تحممت » وليس في اللغة كلمة تحمم بل « استحم » فيا للجريمة ! » .

سالتكم ، يا سادتي ، باسم العدل والفهم والقاموس ، لماذا جاز لبدوى لا اعرفه ولا تعرفونه ان يدخل على لغتكم كلمة « استحم » ولا يجوز لشاعر اعرفه وتعرفونه ان يجعلها « تحمم » ؟ وما هي الشريعـة السرمدية التي تربط السنتكم بلسان اعرابي عاش قبلـكم بالوف السنين ولا تربطها بلسان شاعر معاصر لكم ؟

تقولون « لو اجزنا لكل كاتب وشاعر ان يتصرف باشتقاقـــات اللغة كما شاء لما بقيت لنا لغة » فاجيبكم : انه لو صح ذلك لما كــان لكم من لغة الان : لان الذين كتبوا أو نظموا أو الذين يكتبون وينظمون

بلغتكم ويهفون ضد قاعدة صرفية او نحوية من قواعدها هم اضعاف اضعاف الذين كتبوا او نظموا ولم يهفوا · بل ليس من كتب ونظم بالعربية الا ارتكب بدل الهفوة هفوات ..

امامكم كلمتان « استحم » وهي قاموسية و « تحمم » وهي غير قاموسية · الا ترون انكم اذا اعرضتم عن الثانية اضمحلت من تلقاء نفسها ، واذا اقبلتم عليها اصبحت جزءا من لغتكم واضمحلت الاولى؟ وفي الحالتين تجرون باختباركم حسب سنن طبيعية ليس لي ولا لكم فوقها أقل سلطة] ·

والى هذه النتيجة يصل اكثر ادباء المهجر الشمالي كجبران ونسيب عريضة وايليا ابي ماضي الذي يقول في مجال التجديد والتحرر : —

لست مني ان حسبت الشعر الفاظا ووزنا
خالفت دربك دربي وانقضى ما كان منا
فانطلق عني لئلا تقتني هما وحزنا
واتخذ غيري رفيقا وسوى دنياي مغنى

بل ان الدكتور مندور يذهب الى ابعد من هذا حينما يدافع عن ادب المهجر في كتابه (في الميزان) حينما يقول [نعم قديخطئون في النحو والصرف ولكن هذه في نظري اشياء نادرة لها نظائرها عند اكبر الكتاب · والى اليوم لايزال الفرنسيون يضربون المثل بفلتير في الخطأ والاملاء ·

وانما يعيب الاسلوب عدم التجديد او العجز عن الايحاء وتلك عيوب لا وجود لها في شعرهم ····] ·

اما ادباء المهجر الجنوبي من أمثال الشاعر القروي وحبيب مسعود وشفيق وفوزي معلوف وشكر الله الجر وجورج صيدح والياس فرحات، فقد كانوا يعنون عناية خاصة باللغة العربية الى حد بعيد ·

وان لذلك سببا مهما ، وهو ان اللغة فى امريكا اللاتينية ذات قواعد واسس ثابتة. اما اللغة الانكليزية وهى لغة البلاد فى امريكا الشمالية فانها ليست كذلك ولهذا فان الثقافتين اللاتينية والسكسونية لعبتا دورا مهما فى توجيه لغة ادباء المهجر كما يقول بهذا المعنى امين الريحانى .

لقد تصرف بعض ادباء المهجر بالاوزان وتحرروا من القافية وانصرفوا عن كثير من تزمت اللغة الا انهم حافظوا على روح الشرق وعاداته وتقاليده وعلى المنابع الصافية الانسانية فيه وتشبثوا فى مشاعرهم الوطنية وعلاقاتهم المتينة بوطنهم الام .

كقول الشاعر القروي « أمتى انا مكثراً . ووطنى انا مكبرا . اذا اقتطع ذئاب الاستعمار منه قطعة فكانما أكلوا جارحة من جوارحى . واذا هدروا عربيا فى لبنان أو تطوان فكانما شربوا نخبة من دمى . وكان كل بلد قوى من بلادى ساعدى مفتولا . وكل شعب خامل فيها زندي مشلولا . بل ما اعد ذاتى الا خلية فى جسد امتى . انا واحد من سبعين مليونا من العرب(١) : كل واحد منهم انا فينبغى ان احبهم سبعين مليونا ضعف حبى لنفسى من افتداهم فكانما احيانى سبعين مليون مرة .... » .

وحسبك ان تقرأ ايضا مقطعا لايليا ابى ماضى مثلا لتلمس بصدق فلسفة الروح الشرقية الاصيلة . حينما يقول فى (الطلاسم) :

اتراني قبلما اصبحت انسانا سويا
كنت محوا او محالا ام ترانى كنت شيا
الهذا اللغز حل ؟ ام سيبقى ابديا
لست ادرى ... ولماذا لست ادرى ؟
لست ادري

---

(١) هكذا كان المعروف عن تعداد العرب حين كتابة المقال .

لقد اجمع النقاد على ان الادب المهجرى قد فتح آفاقا جديدة امام الادب العربى وادخل لونا مستحبا رفيع المعانى على ادبنا الحديث . وفى ذلك يقول الكاتب اللبنانى وديع ديب « وآية القول .. فان الادب المهجرى ادب رسالة ولمحات ذهنية شفافة اخاذة فى الدرجة الاولى ثم اخراج فنى بعد ذلك » واليك هنا ما كتبه بعض شعراء المهجر. وفيه تصوير ملون عجيب يطوى تحت جناحيه معظم الوان البلاغة العصرية المتمردة :ـ

يقول نسيب عريضة

يا قلب يا طائراً صغيرا   مضطربا فى يد الحياه
يا ظامئاً والدماء تجري   منه ليروى بها سواه
تعال نختر لنا طريقا   نقفو بها الحلم فى سراه
تعال او تنقضى الليالى   فتنثنى دون ان نراه

ويقول ندره حداد :

يمر ذكر الصبا   انغام مزمار
او نفح زهر الربى   فى شهر ايار
ما قيل لى مرحبا   فى كل اسفارى
الا وقلبى صبا   للاهل والدار

ويقول نعمة الحاج فى هذا المقطع من موشحه :

فى ظلام الليل والناس نيام   أرقت عينى فما ذقت الكرى
ليلة احببتها منذ المسا   للصباح
فى فنون وشجون واسى   والتياح

نزل الهم بقلبى ورســـا واستراح
واذا الهم على القلب اقــام راح عنه الدمع يروى خبـرا

واليك هذا المقطع الرائع من قول ميخائيل نعيمة :

اخى ان عاد بعـــد الحرب جندى لاوطـانه
والقى جســمه المنهوك فى احضــان خلانـه
فلا تطـلب اذا ما عـدت للاوطـان خـلانا
ســوى اشباح موتانا

وهذا شفيق معلوف يقول فى قصيدته المطولة عبقر :

على الربى استلقى شعاع الضحى يعبث فيــه الارج العـــاطر
فعانق الزهــــر وضمتهمـا غمامــة علقهـا النـاظر
غمــامة بينـــا اراهــا اذا شيطان شعرى تحتها ســائر
كأنـــه لما بـــدا خفيــة قذفــه من الثرى ســـاحر
فى فمـــه من سقر قطعـــة منهـــا يطير الشرر الثائــر

ثم يقــول :

اقبل نحوى قائـــــلا اننى طوع لما يقضى بـــه الآمر
اتيت والليـــل طوى ذيلــه فعم صبـاحا ايها الشـــاعر

وبالاضافة الى الشعر وهو السمة الغالبة على الادب المهجرى فقـد قدم المهجريون نتاجا اصيلا فى الرواية والمسرحية والقصة وفى اطار من اللمحات الانسانية والاسلوب الرمزى ٠٠ كما انهم برزوا فى مجال الامثال والحكم والاقوال المأثورة والكلمات المضيئة والفلسفة :

ولعل خير شاهد على هذا اللون من الادب ، نتاجات جبران وامين الريحاني وميخائيل نعيمة وشفيق المعلوف واضرابهم من عمالقة الادب المهجري .

فهذه « دجلة » امين الريحاني تجد فيها صورة مجددة زاهيـــة من الشعر المنثور برز فيه وجدد وطور وهي مثـال صادق على فتوة ذلك الادب وانطلاقه :

اصافحه والقلب في يدي
احييه والروح على لساني
اكبره وكلي كلمة الاكبار
اقف امامه فتنكشف امامي اعاجيب الزمان
انظر اليه فتنظر منه الي ربات الاقاليم
ألمس ردنه فيرتعش جسمي ، فينتعش ، فيهتز ابتهاجا
يكلل راسه السنديان ، ويجثو عند قدميه النخيل
تقيم له الجبال الهياكل ، وتنبسط لقدومه السهول
يقبل الثلج فمه ، وتقبل الرمال اعطافه
وتمتزج انفاسه بالخليج والبحار
له كلمة تخيف ، وكلمة تثير ، وكلمة تحيي وتميت
وهو يسير في سبيله هادئا مطمئنا .
يحمل الخير من الشمال الى الجنوب
من اقليم الى اقليم يجيء بفيضه ، يتحول غربا وشرقا
لتعم بركاتـــه البلاد

تقول له الجبال : اقرأ السهول سلامنا
ويقول هو للسهول : أقرئى سلامى قحطان ومضر

× × ×

هو رب العراق ، هو حياته الخالدة
عينه عين الدهر ، ولسـانه لسان الزمان
وحافظته حافظه الخالد من الاكـوان
شاهد من الممالك ما قـام منها بالسيف
وما قـام منهـا بكلمة سحر حـلال
وما قـام منهـا بالعلم والفنون
تلألأت على ضفافـه انوار السرور والاهواء ٠
وجرت فى ضلال نخيلـه مواكب العزة والمجد
وانطفات الانوار ، ودرست القصـور
واضمحلت آثار العظمة كلها — الى حـين
وظل هو سائرا فى سبيله هادئا مطمئنا ٠

واليك صورة اخرى من ذلك اللـون الادبى الرامز الهامس المتعمق فى الكلمة ، المبتعد عن رنين الالفاظ الضخمة ٠ اليك بعض ما كتبه ميخائيل نعيمة تحت عنوان « الاحتضار » :

الغرغرة تغور فى الصدر ويبعد قرارها ، كأنها بقـايا شريدة من عاصفة فى قصر واد ، والانات تتواهى وتتقطع وتتباعد ٠ ومعاون الطبيب يجس النبض من حين الى حين فى انتظار النبضة الاخيرة ٠

وانا ، بجانب السرير ، افكر في القلب المحتضر امامي ودقاته من الاولى حتى الاخيرة ـ اين هي ؟ فيتراءى لي ان في الفضاء حافظة تعي كل دقة من كل قلب ، وكل شهوة ، وكل فكر ، وكل عمل ، وكل طرفة عين ، وكل حلم ، وكل نبرة ، وكل نفس · وان كل انسان سيأتيه يوم تتمزق فيه اغشية الحس عن عينيه ، وتنفك عصائب الوهم عن اذنيه فيبصر ويسمع كل ما كان من امره منذ صدوره من مصدر الحياة حتى عودته اليه · بل يخيل الي ان تلك الحافظة كامنة في اعماق الانسان نفسه وان الانسان ، من حيث لا يدري ، يحفر حياته فيها مثلما يحفر الصوت في صفيحة الفونوغراف ··· »

ثم اليك هذه اللمحات الاخاذة من التاملات والكلمات المضيئة ، تسبح عبر تلك العوالم الواسعة لتصل شرقية النفحات موحية وملهمة ومعبرة : انها صدى نفس ذلك الفنان الفيلسوف الروائي الشاعر جبران

« قد طهرت شفتي بالنار المقدسة لا تكلم عن الحب ، ولما فتحت شفتي للكلام وجدتني اخرس » ·

× × ×

للبحر مد وجزر ، وللقمر نقص وكمال ، وللزمن صيف وشتاء ، اما الحق فلا يحول ولا يزول ، ولا يتغير ، فلماذا تحاولون تشويه وجه الحق ·

× × ×

ليس من يكتب بالحبر كمن يكتب بدم القلب · وليس السكوت الذي يحدثه الملل كالسكوت الذي يوجده الالم ·

اما انا فقد سكت لان آذان العالم قد انصرفت عن همس الضعفاء

عندما تتكلم القوى الكامنة في ضمير الوجود – تلك القوى التي لا ترضى بغير المدافع السنة ولا تقنع بسوى القنابل الفاظا ٠

× × ×

ليتني كنت بئرا جافة والناس ترمي بي الحجارة فذلك أهون من ان أكون ينبوع ماء حي والظامئون يجتازونني ولا يستقون ٠

× × ×

ليس بين ما نظمه الاقدمون قصيدة ادنى الى معتقدي واقرب الى ميولي النفسية من قصيدة ابن سينا في النفس ٠٠٠٠٠٠٠٠٠

وليس من الغرائب صدور هذه القصيدة من وجدان ابن سينا وهو نابغة زمانه ، ولكن من الغرائب ان تكون مظهرا لرجل صرف عمره مستقصيا اسرار الاجسام ومزايا الهيولى ٠ فكأني به قد بلغ خفايا الروح عن طريق المادة وادرك مكنونات المعقولات بواسطة المرئيات ، فجاءت قصيدته هذه برهانا نيرا على ان العلم هو حياة العقل يتدرج بصاحبه من الاختبارات العملية الى النظريات العقلية ، الى الشعور الروحي ، الى الله ٠ » ٠

× × ×

ولابد لي قبل ان اختتم هذه اللمحة الخاطفة في التعريف بالادب المهجري من ان اذكر بكثير من التقدير والفخر اثر التجمع الادبي في المهجر الشمالي والذى تبلور في الرابطة القلمية التي اسسها اولئك الادباء عام ١٩٢٠ برئاسة جبران وهي التي وصفها الشاعر صلاح لبكي بقوله انها كانت «ثورة على الوقوفيين امتلأت صدور اكثر اعضائها بالاداب العالمية الحديثة المتنوعة ، فأدركوا ان الادب الحق انما هو ابداع وان خلود الآثار لا يتأمن الا بما تتضمن من طرائف قيمة مضافة الى قلائد الاختبارات الموثوقة » ٠ ولابد من الاشادة ايضا بالدور

البارز الذى لعبته العصبة الاندلسية التى انشأهـــا ادباء المهجـــر الجنوبى ، برئاسة ميشيل معلـــوف اولا ومن ثم الشاعر القروى (رشيد سليم الخورى) عام ١٩٣٣ والتى اهتمت اهتماما بالغا باللغة العربية وقواعدها فأصدرت فى عام ١٩٣٥ مجلة ادبية فخمة اطلقت عليها اسم « العصبة » ، ترأس تحريرها حبيب مسعود .

ان ذلك الزخم الادبى المجدد الذى طلع به هؤلاء الادبـــاء راح يتضائل شيئا فشيئا بمرور الزمن . وفى هذا يقول الياس قنصل احد ادباء المهجر الجنوبى المعروفين فى مقاله الذى نشره فى مجلة الضاد الحلبية (آذار ، نيسان ١٩٦٩) :ـ

« لم نعد ننتظر من الادب العربى فى الارجنتين، ان يتدفق بروائع تضاف الى دفتر المجد الفكرى الذى كتب سطوره الاولى منذ ستـين سنة تقريبا ، بل امسى قصارى املنا ، ان تنبثق من نفسه قوة تمـد فى البقية الباقية من حياته التى تهوى يوما فيوما .

وهذا الذى نقوله عن ادب الضاد فى هذا المغترب ، نعممه على سائر المهاجر الامريكية . »

وحينما نقرأ بكثير من الحسرة والالم هذه النهاية التى ما كنـا نتمناها للادب المهجرى ، ندرك تماما ان هذا الادب بمـا قدم وطور وابدع وخلق سيبقى ذلك الضوء المشرق الذى انطلق قويا مؤثرا فمد الادب العربى بقيم ومفاهيم ثرة ستبقى زاخـــرة بالمعانى الانيقـــة الحكيمة الواعية .

الادب المغربي

على الرغم من ضراوة الغزو الفكرى الفرنسي ومحاولته الواسعة لطمس معالم الادب العربى فى جميع البلاد العربية التى كانت تحت نفوذ الاحتلال الفرنسى ، الا انه لم يستطع ان ينال كثيرا من عراقة الادب العربى فى المغرب وعمق جذوره العربية • فقد تمكـــن هذا الادب ان يقاوم التيار الى حد بعيد وان يصرع الاتجاه المخطط لاذلاله ويحتفظ بعد هذا بأصـالته ومقوماتـه • على أن لغـة البـلاد هى التى تأثرت بهذا الغزو ، فقد حاول المستعمرون احلال اللغة الفرنسية فى كل مجال ، لينفذوا بعد ذلك الى اسس الادب • وبهذا يقـول الاديب المغربى عبدالكريم غلاب – لقد دخلت – اى اللغة الفرنسية – لغـة غازية تحل محل اللغة القومية فى الحديث والكتابة والمعاملة • واذا كانت دخلت المدرسة والادارة فقد غزت السوق والمعمل والمصنـــع والمزرعة والنزل • وطاردت العربية فى كل مجال يمكن ان تتنفس فيه نسيم الحياة • واذا لم تستطع القضاء على لغتنا القومية نهائيا، فقد كانت آثار مطاردتها قوية وعنيفة • –

لعل عدم تأثر الادب المغربى جديا بهذا الغزو الشامل ، مرده تلك الجذور المرابطية الموحدية الاندلسية ، العميقة التى حافظت على وجودها وابقت على التراث العربى رغم عاديات الزمن ، فالمكتبة المغربية لم تتعرض الى سحق وحرق واتلاف كما تعرضت فى المشرق العربى ، وفى العراق على وجه التخصيص • وان دعوات تطعيـــم الادب المغربى بأصول واساليب الاداب الغربية لم يلق ذلك الصدى الواسع : فقـد حارب الادباء المغاربة هذا الاتجاه واصبحت دعوة التشبث بالتراث من مميزات الادب المعاصر فى المغرب •

بل لعلنا لا نغالى اذا ما قلنا بأن الادباء المغاربة قد استطاعوا فى الثلاثينات ان يقفوا على مستوى واحد مع ادباء العربية البارزين فى

مصر والعراق ولبنان وسوريا في مجال تحقيقاتهم لكتب التراث او مقالاتهم الادبية في مختلف مجالات تلك الفترة .

الا ان الحماس نحو تاكيد فكرة التراث ، بدأ يتضائل تدريجيا باعتبار ان المقاومة للغزو الفكري اصبحت غير ذات موضوع بعد الاستقلال . لهذا فقد اتجه بعض الادباء المغاربة المعاصرين الى فتح الابواب امام الثقافة الغربية ليتغذى الادب المغربي بدم جديديساير متطلبات العصر .

ومن بين الادباء المغاربة البارزين الذين طرحوا هذا الموضوع الاديب الناقد عبدالمجيد بن جلون حيث يقول - اننا نعيش في عصر تلتقى فيه حضارتان ، حضارة مغربية صرف بتقاليدها الجميلةوعراقتها وفنونها وموسيقاها ورقصها وادابها ومعمارها ونظرتها الى الحياة هي ايضا - .

والحقيقة التي لا مراء فيها ان الادب المغربي اخذ في الوقت الحاضر ببعض اساليب المدارس الغربية الحديثة في الادب ، الا ان تلك الاساليب لم تستطع ان تمسخ جوهره فتحيله الى تكوين مشوه . فقد بقيت القصة والرواية والشعر والمقالة في الادب المغربي ذات طابع عربي مشرق الديباجة قوى التعبير عريق الاسس . وان ما صدر هناك من مجلات بارزة - كالثقافة والرسالة - والمغرب الجديد - ودعوة الحق - وآفاق - والبحث العلمي - ، ولسان الدين - ، يعطى صورة واقعية لمضمون هذا الادب والاسلوب الذى يخرج به .
وفي المغرب اليوم ادباء بارزون يمدون المكتبة العربية والمجلات الادبية برفيع نتاجهم .. فهذه المجموعة الخيرة من ادباء المغرب كمحمد بن موسى ومحمود الفاسي وعبدالله كنون وعبدالمجيد بن جلون وعبدالكريم غلاب وقاسم الزهيري واحمد باكو ومحمد بن تاويت وعبد السلام الهراس وعبدالقادر زمامة وعبدالهادى التازى ومحمد عبدالواحد بناني والشيخ احمد التيجاني وعبدالكريم الطبال وعبدالكريم التواتي وغيرهم عشرات : استطاعت ان تحافظ على التراث العربي من جهة وان تساير اسلوب العصر في انتاجها الادبي ، وان تؤثر في ادب الجيل الجديد ايما تاثير .

ولننظر الآن كيف يعالج ادباء المغرب مختلف مواضيع الادب كالمسرحية والقصة والشعر والبحث والنقد :

لم تبلغ المسرحية ذلك الشاو الذى يمكن معه ان تحدد مركزها ومدى نضوجها فالمسرحية المغربية بقيت قاصرة عن الوصول الى مدى الشعر او القصة او المقالة فهى لما تزل تدور فى مفهوم الحوار المجرد والروح الخطابية .

اما القصة فلا معدى من القول بانها حاولت الوصول الى المفاهيم الفنية الجديدة فى البناء القصصي الحديث . فهذا عبدالمجيد بن جلون احد رواد القصة المغربية البارزين يعبر تعبيرا فنيا مشرقا فى قصته - طريق قوس قزح - حينما يصف التداعى عند بطل قصته - « والتصق وجهى الملتهب بالوسادة المبتلة ، ولم اكن يوحى الي ولم اكن من الغائصين ولا الحاملين ولا البناة ، ولكن حواسى التى سرى فيها سم الغضب كانت مستيقظة الى درجة التوهج ... عيناى المغلقتان تريان كل شيء كما لو كان كل شيء قد اضاء فى اعماقى . واسمع ضجيجا هائلا من الاصوات كما لو كانت الاصوات التى ترددت فى العالم منذ الازل سجينة غرفتى .. تصدح وتبكى وتصرخ وتئن وتتوسل وتضحك وتنخنع وتستهتر وتتعبد ، كانما تبحث عن منفد تنطلق فيه من اغلالها .. - »

وتناولت القصة المغربية ايضا التامل والسرد المطعم بالحوار كما فى قصة ربيع مبارك - الاصم - التى يتحدث فيها عن ايام المقاومة فى المغرب عام ١٩٥٤ : (كان اطول منى ، ويده على كتفى وهو يخاطبنى مبتسما ، وكان ما يفتأ يحدق فى وجهى ، بينما اتحاشى نظراته .

- كن رجلا .

- قلت بصوت اجش :

قد تكون هناك فرصة لنجاتك ، فلا تضيعها . -

- لا تخف لم يبق اذن شيء يقال . وبدا الزمن يبدد احدنا والآخر . وضع صاحبى معطفه فى السلة ، محيطا بالقنبلة من جوانبها زيادة فى ارسائها ، وجريدة قديمة على اعلاها ، وسبقنى الى الكراج .

وعند باب السيارة ، والمحرك يهدر ، تلاقت نظراتنا ،فشددت على يده بقوة ، وانا اقول بصوت استعاد صفاءه :

فكر بالشهداء : ولا تحسبن الذين قتلـــوا فى ٠٠٠٠٠ سلم على الرفاق • وظلت يدانا متماسكتان بقوة ، والعين فى العين ، ثـــم تراختا ، والزمن يدب خلفنا والمحرك ٠٠ وانخطفت السلة ، فجأة من يد صاحبى ، وانطلقت بسرعة البرق • وعدونا معا ، خلفها باقصى ما نستطيع ، ولكن الاصم كان قد أمتلك الشارع ، واستعاد سيره الهادىء والسلة فى يمناه ، وبدا ان الحرس يستعد للقمائه حين نظرت الى صاحبى :

ـ ما العمل

ـ ستنفجر حتما

ـ الى السيارة

وتمططت الثوانى ، ويداى على المقود ، والمحرك يهدر ،والتوجس، واصابع صاحبى تضغط على مسدسه فى عصبية و ٠٠ واصمنا انفجـار هائل فاندفعنا نتخطى الحصار •

كنا خارج المدينة ، حين خاطبت صاحبى ٠٠ رحمه الله ، كـــم شككت فى امره

ـ الاصم ٠٠؟ اعرف قلبه • لو كان الجميع مثله ٠٠ ـ • »

ومن بعض اتجاهات القصة المغربية الحديثة ايحاءات مترجمة حرفيا عن شكليات الادب الغربى سواء من ناحية الاسلوب او المضمون،ولكن هذه الايحاءات منقولة وليست مستفيدة ، اى ان الاسلوب مترجم عنه لا متاثر فيه : ولعل اوضح مثل على ذلك قصة محمد الصباغ (ملهمــة الدير) « وهو جالس فى مقهى ، تناول الجريدة من بائعها المتجـول بعد ان ادى له ثمنها ، دون ان يلتفت اليه ، دون ان يقرأ القصيدة الحزينة التى تخدد جبينه الصغير ، الذى اصبح مستطيلا ليستوعب أبيات الجريدة كلها •

ظل واقفا امامه كلوحة رديئة منسية بعنوان ٠٠ الطبيعة المهملة• ضايقه الظل الضبابى الذى يرتمى على حروف الجريدة •

ـ ماذا تريد

هكذا خاطب القارىء صاحب الظل · اجابه :

ماتت امي بالامس · أكيد ان نعيها صور فى الجريدة ·

فأين هو ؟ أريد ان اراه ·

(اجابه دون ان يواسيه بكلمة تعزية) ·· ··· الخ

من هذا يتضح ان الافكار والتعابير جاءت مترجمة ذاتيا وبلغة تكاد تكون دارجة ·

أما قصة محمد بيدى « الامانى الجديدة » فترى فيها عكس ذلك تماما ، مكنة بارعة فى نقل الصورة الواقعية ذات الابعاد الحسية ولغة تساير الحدث وتحافظ على المبنى والمعنى فى نفس الوقت وبقدرة طيبة على التسلسل المنطقى : ان هذه القصة التى اقدمها الآن نموذج مستفيد من التيارات الادبية الحديثة بشكل مثمر : ـ

« ظلمات الليل تكتنف قامته القصيرة النحيلة وهو يسير مطرق الرأس وئيد الخطى فى ذلك الطريق الموحش الطويل ·· بين الفينة والاخرى تمرق امامه سيارة فتضىء وجهه المسنون المنقبض الملامح ذا العينين الحزينتين والشفتين المنفرجتين عن ابتسامة جامدة بلهاء ،ويبدو سرواله الحائل اللون وقميصه الخشن الذى ينفتح فى اهمال عن رقبته وأعلى صدره ، رغم الجو البارد الذى يسربل ليالى الخريف ···

لقد انتهى كل شيء بالنسبة اليه · تحطمت تلك الامانى الغالية التى كانت ترافق نبضات قلبه وخمدت جذوة الامل والطموح بين حناياه فخيم على نفسه ظلام رهيب ، كديجور ذلك القبر الذى انضم الى الابد على جثة والده العجوز ·· ذلك الانسان ذو القلب الكبير والعينين الباسمتين ابدا ـ رغم اغروراقهما الدائم ـ لم يعد يحيا ·· لقد اصبح عظاما مهشمة فى جوف الارض تعيث فيها الديدان والحشرات · كان عائدا الى البيت على دراجته القديمة بعد ان قضى سحابة يومه كالعادة يكد ويشقى من اجل اللقمة واذا بسيارة احد المترفين المترهلين تدوس جسمه الواهن وتجعل حدا لكفاحه الشاق الطويل ·· ويطل قمر تلك الليلة مزدهيا من خلال كوة ضيقة على بيت حقير يضم امرأة واكفة الدموع

وفتاة محمرة الجفون وفتى تائه النظرة قد تنازعت رأسه هموم كثيرة يربت فى حنان راس اخيه الصغير الذى توسد ركبته ونام بعد ان اوهموه جميعا بأن اباه العزيز مسافر وبانه سيعود ٠

ان هذه الصورة القاتمة الحزينة تتراءى له الآن مع عشرات الصور المؤلمة وهو يسير وحيدا مطرق الراس وئيد الخطى فى ذلك الطريق الطويل ٠

لقد اودعوا اشلاء ابيه التراب منذ ثلاثة ايام ٠ وقد بيع فى سبيل ذلك بعض الاثاث ، وهو اليوم قد ذهب الى المدرسة حيث يتسلم من الادارة ورقة تشهد بانه تابع دروسه بسيرة حسنة وتفوق الى السنة الاخيرة من الشعبة العلمية ٠

اجل ، فلقد كان عليه ان يجتاز فى آخر هذه السنة شهادة البكالوريا فرع العلوم التطبيقية ، وكان يؤمل ، كالمرحوم والده بل ككل فرد من اسرته المكافحة ان يلج كلية الطب بعد ذلك ويصمد ويجتهد حتى يجعل من نفسه طبيبا محترما نافعا لاسرته ووطنه ٠ ٠ لقد كان ذلك أمل الاسرة جميعا ولا سيما والده الحبيب الذى كان يتالم الما شديدا كلما ذهب الى المستشفى العمومى فلمس المعاملة القاسية الجافة التى يعامل بها الطبيب الاجنبى المواطنين الذين لا حول لهم ولا قوة ٠

« ما دمت استطيع ان اوفر لك اللقمة والمصاريف فلا تهتم بغير دروسك يا عزيزى : ياسى الطبيب ٠٠٠ » هكذا كان يقول له دائما رغم البيت الوضيع الذى يسكنونه ورغم الثياب البسيطة التى يرتدونها ورغم ابناء الجيران الذين عملوا فى بعض الشركات ــ وهم لم يحرزوا بعد سوى على الشهادة الابتدائية او الثانوية مقابل مراتب مغرية ٠

اما الآن فاللقمة لم تعد مضمونة وقد غاب ذلك الانسان الطيب الصبور ، وشر الجوع والتشرد يهدد افراد اسرته اذا لم يبادر هو الى العمل ٠ لقد نوى ان يذهب غدا الى مدير احدى الشركات الاجنبية عسى ان يقابله كمحرر ٠ يالسخرية القدر ، من العلوم التطبيقية الى عمليات الجمع والطرح اللانهائية وغير ذلك مما يتصل بالارقام الآلية

السخيفة : ولكن لا يهم . الخبز هو الذى يهم الآن . لتتخرب قصور تلك الامانى الغالية التي قضى احدى عشرة سنة فى تشييدها بكفاحه ولكن لتعش تلك الارملة هنيئة البال ، ولتبتسم تلك الفتاة لربيع الحياة وليمرح ذلك اليتيم البرىء الذى لم يبلغ بعد العاشرة من اجل هؤلاء جميعا سيهون كل شىء . لقد ادمى القدر قلبه وشق فيه اخاديد الالم والحسرة ولكن نبتت من بين تلك الاخاديد امانى جديدة ما اعزها وما اقدسها . سيعمل كل جهده حتى يرد الى هذه النفوس المفجوعة اطمئنانها وحبورها وايمانها بالحياة وتشبثها بالامل . سيجعل امه تبتسم بعد هذا الحزن وهذا القنوط ، وسيرد الى اخته مريم الامل والثقة فى المستقبل ، وسيعتنى بأخيه «نجيب» حتى يبلغ تلك الدرجة السامية التى لم يستطع هو بلوغها . ان نجيب موهوب الذكاء كبير الاجتهاد ، فهو متفوق دائما على اترابه فى المدرسةوسوف يتقدم فى العام المقبل لاجتياز الشهادة الابتدائية ثم يتجه الى التعليم الثانوى وسنه احدى عشر . سوف يكون يوما طبيبا او جراحا بارعا يخدم الكتل البشرية العاجزة ويزرع بذور الامل فى مئات القلوب اليائسة وحسبه هو ان يكون ضمن اولئك الجنود المجهولين الذين يذوبون فى تضحية صامتة .

واحس بقلبه ينبض قويا وبدم الحماسة يصعد الى وجهه فوقف قليلا ورفع عينيه الى السماء يتأمل شعاع الهلال الضئيل الذ يشق غيوم الليل الدكناء . ثم دار على عقبيه وعاد من حيث اتى ، واضاءت وجهه المسنون ابتسامة صافية . ؟ » .

وفى مجال القصة المغربية وما وصلت اليه من ناحيتى الشكل والمضمون والتطور الفنى الحديث يقول عبدالكريم غلاب فى محاضرته القيمة التى القاها عن (دور القصة فى تربية الاجيال) ضمن الموسم الثقافى الذى اعدته وزارة الشبيبة والرياضة عام ١٩٦٨ « ... وفى المغرب العربى نجد هذه الاتجاهات جميعها رغم ان القصة والرواية ماتزال فى بداية عهدها ، وما تزال تسلك سبيل الانطلاق من حيث الكثرةوالذيوع لا من حيث الاجادة والتنويع . ان الاتجاه النضالى يظهر عند عبدالمجيد بن جلون فى مجموعته الرائعة (وادى الدماء)

وخناثه بنونه فى « ليسقط الصمت » وعبدالكريم غلاب فى « مات قرير العين » و (سبعة ابواب) و (دفنا الماضى) ... والاتجـاه الاجتماعى يظهر عند أحمد بنانى وعبدالرحمن الفاسى وعبدالجبـار السحيمى وربيع مبارك ومحمد بيدى واحمد الصفريوى وادريـس الشرايبى وعند الذين ذكرناهم من قبل . »

وما ورد عن القصـة المغربية يكاد ينطبق تماما على المسرحيـة المغربية : وحسبك ان تقرأ مسرحية (بائع النعوش) لعبدالقـادر السميحى او (بدايـة الطريق) لمحمـد الطنجاوى او (الشـرع اعطـانا ربعة) لمحمـد البصرى او (ابو صفـوان) لعبـدالله شقرون أو (التمتـام) لاحمـد الطيب العلج وغيرهـا عشرات لتدرك ذلك التقارب بين مضمونى القصة والمسرحية فى المغرب. على ان الاقتباس للمسرح المغربى قد طغى على التاليف المسرحى الى حد بعيد .

أما فى المجال الادبى بشكل عام فقد شعر ادباء المغرب بان التطور الذى سارت بها قدما موجات الحضارة العلمية فى اجزاء مختلفـة من العالم ، لابد وان يمس الجوانب الايجابية فى ادبهم .

وفى هذا يتحدث عبداللطيف خالص فيقول : ـ ان الادب اليوم لا يكتفى بالعبارات الرقيقة والالفاظ الدقيقة والكلمات الجميلة ، لقد اصبح الادب من اقوى الادوات واكبر الوسائل التى تستعمـل لتكوين الافراد والجماعات . وهو لذلك ملزم بخلق نماذج جديـدة تستطيع ان تنسجم مع مقتضيات التطور الحديثة .

ان الاكتشافات الحديثة والتطورات الحالية قد فتحت امـام الادب افاقا واسعة ومجالات جديدة يتعين على هذا الادب ان ينسجم معها ويتفق تطوره مع تطورها حتى يكون فى مستوى الاكتشـافات العجيبة ويكون بصدق واخلاص اداة فعالة فى طريق التقدم والنمو ـ .

وفى الشعر يقول احمد امين الدرقاوى : ـ ان الشعر فى المغرب الا فى اقله يكاد يكون نظما فالذى يجعل تفاعل العروض بين يديـه يريد ترضيتها ناظم ولو صح عنده الوزن، والذى يقول شعرا ثم يحاول ان يقيسه على طريقة الشعر عنـد العرب شاعر وان اختل عنده الوزن .. نحن نريد شعرا ان لم تكن فيه افكار فعلى الاقل موسيقى ـ » .

ولكن هل هذا الرأى صحيح : حقا ؟ اننى ارى ان فى الشعر المغربى نفسا وروحا جديدا ولغة رصينة • فهذا الشاعر محمد بن محمد العلمى يعالج مشكلة اجتماعية بقصيدة بعنوان – الزواج عندنا – بشعر جزل المبنى أمين المعنى ، حيث يقول :

اشاهد فى امر الزواج غرائبا
فادرك ان النصح قد صار واجبا
لقد ظلموا قلب الفتاة واصبحوا
يبيعونها بيعا لمن جاء خاطبا
ففى اى شرع كانت البنت سلعة
تقضى عليها البائعون رواتبا ؟
فهم جعلوا معنى الزواج تجارة
وما قدروا الا اللهى والمكاسبا
واسخف عقل يجعل المال غاية
واهون بيت ما يضم العناكبا
ورب اناس فى الزواج تستروا
ليجنوا من الصهر الغرير ضرائبا
ورب اناس فى الشقاء تنعموا
وما نظروا فيما جنوه العواقبا

وهذا شاعر آخر هو المدنى الحمراوى يصف طفولته المرحة بقصيدة بعنوان – ذكرى الطفولة – تعطى لونا شعريا ناعما :

ذكرت عهدا تقضى
قد كنت فيه صبيا

لا يعرف الهم قلبي
ولا اراقب شيا
وانما اللهو قصدى
ففيه أمضى مضيا
كالحلم راح وولى
وكان قبل بهيا
ليت الطفولة اضحى
زمانها ابديا
لكن كل عزيز
لم يبق الا مليا

ولعل الجزالة الشعرية وقوة السبك والتعبير ورسوخ قدم الشاعر فى دنيا الشعر تتضح جلية فى قصائد الشاعر المغربى الكبير المرحوم محمد بن موسى الذى يعتبر خاتمة شعراء المغرب من الجيل الماضى . ولعل قصيدته التى نقرأ منها مطلعا ومقطعا تعطى صورة حقيقية عن تلك الطاقة الشعرية .

ابى المجد الا ان تقاد جنائبه
وتمرح فى سرح المعالى نجائبه
وتستحضر الاقيال خاضعة الطلى
مكاتيبه او عززتها كتائبه
فيملى على الاجيال عهدا تكفلت
بترتيله الارواح والدهر كاتبه
يرد صداه شاسع الشرق كلما
سعت لمراميه الجسام مغاربه

يمانيـــة ما ايمنــت نظراتـــه
وقيســية ان مال بالقـوس حاجبـه

وهذا عبدالكريم التواتى ينقلنا الى عـالم الغزل الرقيـق فى قصيدته المعروفة – لست انسى – التى يصف فيها انسياب النغم الرقيق من القلب المعنى .

هــل الى غـير حضنك المستطاب
تاق قلبــي واستشـرفت اكـوابي
ام الـى غير دفئـه الحلـو اهفـو
فـى حميـاه دافنـا اوصابى
أم الـى غـير ثغـرك أهفـو
اى شـىء ســواه يطفـىء ما بـى

واليك مقاطع جميلة المعنى حلوة الجرس من قصائد مغربية اخر
يقول عبدالكريم الطبال فى قصيدته (الجزيرة البعيدة)
تتم اللوحة الشعرية :

يا شهرزاد
الليـل عـاد

وجحـافل الاشـباح تاتـى مـن بعيـد
محمومـة الاقـدام فـى صمت بليـد
والحقـد فـى أحداقهـا ذئـب شـريد
والجـوع فـى أنيابهـا أفعـى تصيـد
الليـل عرسـك ياترانيـم النشيد
فلترفلى فـى زهـو شـذاذ العبيـد

ولتبسمي ياتيه أغصان تميد
فالدم يبسم في جراحات الشهيد
ولتحضني السياف في شوق العميد
فالقبر يحضن قانص الظبي الطريد

* * *

يا شهرزاد
الليل عاد

والاسود المعتوه يرقص في دمي كالعاصف المجنون • يضحك كالجليد
وأخوك قابيل الغريب يسيح في الاعماق كالثعبان • يمشي في الوريد
في لوح نسغي صورة سوداء ترسمها يد الافاق بالدم والصديد
انا شهريار ان قتلت السائح المجنون • ان لم أمش مسحور الشريد
وانا يد السياف ان لم أبن سدا شامخا في أرض ذاتي من حديد

ويقول عبد الرفيع الجوهري في قصيدته (الصاعقات)

أنا الصاعقات ... أنا المغرب
انا السيل والقدر المرعب
أنا الريف والاطلس الماجدان
انا اللهب الاحمر الارعب
أنا الموت للغادرين الغزاة
أصيب الدمار ولا أرهب

* * *

جبالي كم أنبتت من بطل
ومجد الشموس عليها اشتعل
نسور الحروب على صخرها يو
لدون ... سلوا قافلات الازل
وزيتونه السلم في عرصاتي
عروشها من ساقيات الجبل

* * *

أنـا الصاعقـات ... انا المغرب		انـا السـيل والقـدر المرعب
انا الريف والاطلس الماجـدان		انا اللهب الاحمر الارعـب
أنـا المـوت للغادريـن الغـزاة		أصيب الدمـار ولا ارهـب

* * *

لـواء الصعـود بأرض خفـق		وليل المآسي هـوى وانسـحق
بجوف الصحـارى نـداء جدودى		يهز كيـانى ... بقلبى التصق:
« لنا المجد ، والمجـد للصاعدين		ومن يبتغ الشر فينا احتـرق »

اما عمر بهاء الدين الاميرى فيقول فى قصيدته « طوفان » التـى القاها فى فاس خلال امسية شعرية حالمة :

البـائسـات ، المائسـات ،
كالـة مـن غير روح
الناشـرات شـذى ، ومن
اعماقهـن أذى يفـوح
الضاحكـات وقـد طوين
قلوبهـن على جـروح
آلامهـا الحرى مـع ...
الزفرات ، فى لهث تنـوح
ولقـد يقال الفـن ما
يحيين فيـه مـن الجنوح
ونجين من رهـق العقـول
...من الغموض،من الوضوح

وسعدن بالايام تمضي

... بالغبوق وبالصبوح

فنقول : بل خدرنها ،

وغدا يكون بها جموح

ولعل ذا قلب يرى

مأساتهن كما تلوح

وسلوا الشقاء ، وانه

بئس المصير ، فقد يبوح

ما للحياة ، حياة دنيا ..

الغرب ملأى بالقروح

الرق فن ، والتسابق

.. فى الظلال هو الطموح

والجاهلية هكذا تمضى

.. وان لبست مسوح

ياردة البشرية الرعناء

.. عن هدى شبوح

الطائر المكدود فى ..

الادواء ، كل عن السفوح

سيغيب فى وهداته

فكانه آل سنوح

حتى ولو راد الفضاء ،

.. وشاد فى النجم الصروح

ما قيمة التحليق في ..
الاجواء ، نلتمس الفتوح
والشر في ارض «الخلافة»
.. من مفاسدنا رموح !
يا أمة الايمان نهدا
قد كفى طي الكشوح
مستخلفون على الحياة ،
أما نشد ، أما ننوح !!
أين الابوة والهدى
أين المبادرة الطموح ؟!
للكلكل الغربي فوق
.. كواهل الدنيا رزوح
لا بد للظلمات والظلم
... الموكب من نزوح
يهتز ميزان الدنى
والحق اصمد للرجوح
والدهر قسطاس ، وان
اغضى ، فما هو بالصفوح
الآلة الصماء ، والشهوات،
.. والطبع الجموح
من ذاتها ، باذاتها
سيدكها قرن نطوح

يـا نجــدة الانسان ..
بالقـرآن ، بالخيـر النفوح
انـى لاخشى قبل منبلــج
.. السنا ، طوفان نوح !!

يتضح مما قدمنا من الوان الادب المغربى انـــه بلغ شأوا طيبا فى مختلف المواضيع واستطاع ان يعبر عن ذلك بصدق وامانة وتفتح بحيث اضحى ما حقق ودرس وما الف ونشر من كتب ومقالات وقصائد وقصص مصدرا ثرا ومرجعا ضخما يمكن الركون اليـه بيسر لدراسة الحياة الادبية فى المغرب العربى بشكل واسع وشامل .

الادب الجزائري

خيم الظلام الدامس على الجزائر عام ١٨٣٠ يوم طغى اعصار الاستعمار الفرنسى ، وجعل من مزدهر مدنها كتلمسان وتيهرت وبجاية وهى منائر العلم والفن والادب ، مراتع ظلمه وطغيانه واستبداده · لقد دخلها عنوة ، وهو يعلن على لسان الكاتب الفرنسى اوجستين برنارد « اننا لم نحضر الى الجزائر لاقرار الامن ، بل لنشر الحضارة واللغة والافكار الفرنسية وليست الجزائر مستعمرة ، بل هى جزء من فرنسا ··· اننا نريد ان نجعل هناك جنسا يندمج فينا عن طريق اللغة والعادات وسيتم هذا بعد نشر لغة فكتور هوجو » .

وقد كان للاستعمار الفرنسى ما اراد حينما سار المهيمنون على شؤون الثقافة والفكر من الفرنسيين ، فى الجزائر ، على هذا التخطيط الواسع الذى كان يمثل الغزو الفكرى لادب ولغة العرب فى الجزائر .

× × ×

لعل الوصف الذى اتى به الاديب بشير الحاج على لاثر هذا الغزو على الادب العربى هناك خير ما يعطى اللوحة الوانها وابعادها حيث قال :

« لقد كانت الجزائر عاصمة لمجتمع متحضر له قيمته الثقافية ولديه حرفه المزدهرة ···· وكانت علوم الفقه والادب تدرس ، وكان التعليم منتشرا بين الوطنيين فى المساجد والكتاتيب على ايدى المعلمين ، ولكن فى ٥ تموز عام ١٨٣٠ فتحت صفحة دامية ·· سقطت مدينة الجزائر ، وغطت جوانبها الجراح ، ولم تكد سنة ١٨٣٢ تحل حتى كان ٦٢ مسجدا قد احتل ومسجدان قد دمرا · وهجر معظم الاساتذة البلاد ولم يبق من المدارس الا عدد محدود بعد ان كان فى الجزائر كلها اكثر من ٣٠٠٠ مدرسة وقد تاثرت القيم الجمالية

بهذه التقلبات الاقتصادية والاجتماعية ، فاضمحل الادب المكتوب واللغة والثقافة الرفيعة ٠٠ » ٠

ولكن الامر لم يقتصر على هذا وحده بل كان الامعان فى فرنسة كل شيء سائر باعداد دقيق خلال قرن من الزمن ، وحينما حل اليوم الثامن من آذار عام ١٩٣٨ صدر القانون الغاشم الذى اعتبر اللغة العربية لغة اجنبية ٠ وقد كان صدور هذا القانون بمثابة الشرارة لانطلاقة جزائرية واسعة في حقل الثقافة العربية فيها تحد سافر لسلطة الاحتلال وتعاليمها المشددة ٠ اذ على أثر صدور ذلك القانون أنكب ابناء الجزائر على كتاتيب الدراسة الاسلامية ينهلون من معينها الثر ما يساعدهم على تمتين لغتهم العربية وايصالهم بما انقطع من عاداتهم وتقاليدهم وتراثهم العربى الواسع ٠

وقد كان للبعثات الجزائرية التى كانت تطوف الجزائر اثرها البعيد فى بث الوعى وتزويد الناشئة بالثقافة العربية على سبل مختلفة ٠ ولابد هنا من الاشارة الى شخصية جزائرية فذة لعبت دورا مهما فى تنشيط الحركة الثقافية العربية فى الجزائر الا وهى شخصية الشيخ الفاضل عبدالحميد بن باديس الذى كانت له اليد الطولى فى نشر اللغة العربية ، وكان لمجلته البارزة «الشباب» القدح المعلى فى بث النزعة العربية واشعال الجذوة الوطنية فى الجزائر باسرها ٠ كما لابد من الاشادة بالدور الهام الذى قام به أحد اعلام اللغة العربية الا وهو المرحوم البشير الابراهيمى الذى قدم جل الخدمات للادب الجزائرى ٠

لقد كان لدعوات التحرر الفكرى التى تنادى بها كتاب فرنسا المحدثين صدى بعيد الغور عند ابناء الجزائر الاحرار ، اذ كانت المنادات الانسانية بوجوب تثمين الحرية ودعمها تدفع بهم الى المطالبة الموازنية بين ما عليه الفرنسى فى بلاده وما عليه الجزائرى تحت ظل الاستبداد ٠ ومن هذا التداخل الحسى اللاهب ، انطلق الادب الجزائرى الى آفاق واسعة يقتحم الاسوار ، وينفذ الى الادب الاوربى

يهز بلغته وعمق آرائه وتجربته الفريدة ابناء السين بشـــكل خاص فتتفتح أعينهم على تلك الانماط من الادب الفعال الثائر المتـــدفق بالعاطفة ، المعتمد على العقل كمصدر لتبيان الحقيقة .

لقد برزت الرواية وبرز الشعر فى الادب الجزائرى الحديث ، فمنحه طاقات هائلة من التعبير وصدق العاطفة واصالة الهدف ، ومع ان اللغة الفرنسية كانت هى الاداة المعبرة عن ذلك الرصيد الفخم من الادب فى بعض الاحيان الا ان جله ظل أدبا جزائريا بروحه وتعبيراته وصوره ومنطقه الثورى . لقد عمل على ابداع هذا الادب الجزائرى الواقعى الحديث مجموعة من الادباء والشعراء الذين تغنـــوا بحب بلادهم وكفاحها من اجل الاستقلال ، فبرز فى الادب والروايةوالقصة القصيرة فى المرحلة الاولى محمد عابد الجيلالى واحمد بن عاشـــور ومحمد شريف الحسينى والحفناوى عالى وغيرهم وبرز فى الروايـــة فى المرحلة الحديثة مولود فرعون ، ومحمد ديب والقطيب التنانيومولود معمرى، ومالك الوارى وادريس الشرايبى ومالك حداد وعبداللهركيبى . وبرز فى الشعر محمد العيد ، الذى يعتبر شاعر الثورة الجزائريـــة ، صالح الخرفى وابن تومرت وتوفيق شمـــاهين ومحمـــد الاخضـــر السائحى .

وعن القصة القصيرة يقول عبدالله ركيبى فى مقاله (القصـــة القصيرة الجزائرية) المنشور فى مجلة اللقاء الصادرة فى مايـــس ١٩٦٩ :

« هذا ولم تتجدد القصة فى مضمونها وموضوعاتها فحسب بل فى شكلها ايضا ، فظهرت فيها اشكال جديدة مثل شـكل الرســالة وأستعمال بعض الاساليب المختلفة كطريقة المونولـوج الداخـلى أو (تيار الواعى) ، بالاضافة الى الشكل العادى لكتابة القصة ،كما عرفت القصة الرمز المباشر وغير المباشر واصبحت غالبـا ما تميـــل لى الايحاء والتلميح والهمس والبعد عن الخطابية والمباشرة . وبدأ التطور واضحا فى مراعاة سمات القصة القصيرة من تعبير عن موقف معين وتركيز وايجاز ووحدة عضوية واهتمام بالنهاية المعبرة » .

ثم يقول « وكان من نتيجة هذا كله ان وجدنا بين ايدينامجموعات قصصية كاملة معظمها طبع خارج الجـزائر ومجموعات صـورت فى مجموعها أو فى معظم قصصها واقع الثورة وتجارب النضال تصـويرا فنيا صادقا واكب مراحل الثورة وعبر عن اهدافها ، مجموعـات مثـل « الاشعة السبعة » و « دخـان من قلبى » و « بحـيرة الزيتون » و « صور من الجزائر » ، و « ظـلال » و « نفوس ثائرة » وغيرها ·

وبرزت اسماء لقصاصين شبان امثال الدكتور ابو العيـد ودو وعبدالحميد هدوقة والطاهر وطار وعثمـان سعدى والجنيدى خليفة وفاضل المسعودى وغيرهم ·

ولكن هذا كله لا يعنى ان القصة القصيرة اثناء الثورة قـد توفرت فيها كل خصائص وسمات الفن ، وانما يعنى انهـا خطت خطوات جديدة واسعة كبيرة من النضـج · الى جانب تطورهمـا ، واقتربت الى حد النماذج التى لم تتخلص تماما من السرد المباشـر والاسلوب الخطابى الذى كان سائدا فى بداياتهـا الاولى » ·

ان الذى يلفت النظر فى الرواية الجزائرية هو الصدى الـذى احدثته اصالتها وروحها الشرقية الواقعية فى خارج الجزائر · ومن بين الروايات الشامخة التى انطلقت بهذا الشكل الواقعى الشاعرى المعبر عن مأساة الجزائر واستمرارية ثورتها العارمة ، هى روايات مولـود فرعون ، التى تقف على قمتها روايته الرائعة (الارض والدماء) تلك الرواية التى فازت بجائزة الادب الشعبى فى فرنسا عام ١٩٥٣ حينما زاحم بها خمسين اديبا فرنسيا فبزهم جميعا لما حوته من صورتعبيرية ولوحات فنية تمثل الثورة العارمة اروع تمثيل لقداعتمد مولود فرعون فى هذه الرواية الواقعية الحديثة على الاسس الجديدة فى البناء القصصى وركز على الوضع الاجتماعى والاقتصادى فى الريف والمدن بأسلوب فنى جذاب والوان خلابة : كوصفه لهذه اللوحة الحية فى روايتـه « الارض والدماء » حينما يقول « كان الزوجان جالسين على ضوء جمرات حمراء يغطيها غشاء خفيف من الرماد ، وكان البيت مغمورا بالظلمة · شعر

رمضان كأنه فى قبر حيث لا شيء حى الا هذه الموقدة التى تنهار وتموت بدورها قليلا .. قليلا . »

وهناك روائيون جزائريون آخرون لايمكن الاحاطة بنتاجهم كله ولكن لابد من التلميح الى اديب آخر بارز اشتهر بقصصه التى تعتمد على الحياة الاجتماعية والفنية الدقيقة عند الشعب الجزائرى الا وهو محمد ديب الذى كتب (البيت الكبير) و (الناسجة) وعشرات غيرها من القصص التى جاءت بها مجموعته « فى المقهى » ومجموعته الثانية (الطلسم) وقد كتبهما اصلا باللغة الفرنسية وتميزتا بعمق الاوصاف والدقة فى التعبير وسلامة اللغة والروح الريفية الثائرة حين يصف حالة ابناء الجزائر البائسين : كقوله فى (البيت الكبير) « لم يعد هناك اى حاجز يحول دون زحفهم المتلاحق الذى اوصل جحافلهم الى الاحياء النظيفة والاسواق التجارية واقسام المدينة الشريفة (حيث بيوت الاوربيين التى تعكس انوارها فى الليل الحياة السعيدة الهادئة) يهيمون دون هدف ودون ان يابهوا بالمطر المنهمر الذى يفرقهم كالمزق ، كانوا يهيمون واحداقهم ميتة ، وايديهم تستجدى بحركة عفوية ، ينظرون من مخابئهم كامدى الالواق ، ثم يعودون بعد لحظات من حيث اتوا كأن العدم الرطب قد قاءهم » .

أما الشعر فقد ادى دوره الطليعى فى تأجيج نار الثورة الجزائرية ـ التى هى بلا شك منطلق الادب الجزائرى الحديث ـ فمنح الشعب بذلك صوتا هدارا تسير على انغامه مواكب الحرية وقد أظهر الشعراء الجزائريون مقدرة فى تصوير احاسيسهم وانفعالاتهم وتمكنا من معطيات الفكر وتدفق المعانى العميقة ايما تمكن .

ولعل الشاعر المبدع محمد عيد قد استطاع ان ينفرد بالنفير الذى يعلن للخطر ويدعو للكفاح بآيات من البلاغة والحماس وصلابة المبدأ وصدق العاطفة . انظر اليه كيف يحاول تصوير مأساة الجزائر فى

هذه الابيات :

ليس حقا ، ان تحرمي الشعب حقا
لقي النار دونه والحديدا
ليس حقا ان تستريحي ويشقى
ليس حقا ان تسكني ويميدا
ليس حقا ان تستجدى ويبلى
ليس حقا ان تخلدى ويبيدا
يا فرنسا ردى الحقوق علينا
واقلى الاذى . . . وكفى الوعيدا
نحن رغم الطغاة فى الارض احرار
وان خالنا الطغاة عبيدا

وقد حاول محمد عيد ان ينبه دوما الى تاريخ الجزائر والبطولات العربية ، والشكيمة والكرم وعلو المحتد باسلوب جزل العبارة فخم المبنى :

وانا لشعب ، يعلم الله انه
كريم ، حصيف الرأى ، مرتفع الكعب
سليل جدود نابهين ، اعزة
مغاوير شوس ، كالضراغمة الغلب
ولكن عثا الحدثان فى الشعب مرغما
عليه ، كما تطغى السيول على العشب

فأصبح مغبـونا من العيش مرغمـا
على الهون ، مرهونا كيوسف فى الجب
وغاب عن الابصار ، لو لا مخـايل
تلوح كومض البرق من خلل السحب

او كقولـه :

يا حمـاة البلاد يا فتيـة الضـا
د ، ترى هـل لكم من الرأى مغـن
سـار اجدادكم مع العصر شـوطا
وبقيتـم ما بين وهـم ووهـن
اين منكـم مهابة وانتصـاف
أم سـكنتم الى احتقـار وغبـن
لا تقـولوا هان الجـدود ، فهنا
ساء نشء لهـم بـه سـوء ظن
فى (تلمسـان) فى (بجـاية) فى تيـ
هرت فى (القلعـة) ازدهى كـل فن

× × ×

وحينما تسحق الجزائر فلول المعتدين وتقف شامخة متحديـة الطغيان فترفع علم ثورتها خفاقا على قمم جبال الاوراس وكل ركن من أرض الكفاح البطولى ، ينطلق محمد عيد يحيى ذلك البيرق الباسل

بقولـــه :

ويا علمي تحيا عـــلى رأس امتي
شعار كفاح تسحب الذيل بالفخر

وتاج لجين شـــــده بزمــرد
هلال شموخ ، زانه كوكب دري

ويا علمي تحيا باجــواء امتــي
وآفاقهـــا بدرا يتيه على البــدر

تســير على اضوائه مســتدلة
على الهدف المنشود بالانجم الزهــر

ويا علمي اني ارى بك عـــالمي
بدا بعدما اخفته عني يد الســتر

فانت حياتي انت روحي وراحتــي
وراحي وريحاني ويسري من عسري

وانت صدى عزمي بما انت اهلــه
تحية عذري الهوى صادق العــذر

وهناك شاعر جزائري آخر هو صالح الخرفي بذل عصارة قلبه من اجل وطنه العربي ، وكانت مأساة بلاده امتدادا لمأساة فلسطين العربية . وتراه هنا كيف يمتزج الالم بالمرح في نفسه فيخرج بصورة نادرة المعنى :

شبح لاح لي ، يدب على التيه ، الى الافق تشرئب يــــداه
يا الهي متى اعود ؟ متى الفجر ؟ وليلي على الاسى مـــا مداه
رجع الافق صوته ، ثم احنى يسأل الارض : هل سمعت نداه
فتعـــالى من الجزائر صوت : أمل العائدين : نحن فــــداه
من عباب المحيط في المغرب الاقصى ترامى الى الخليـــج صـــداه

× × ×

يا اخي في خيام (غزة) في قلعة (يافا) جروحنا تتنـــادى
نحن قربان مدلج ينشد الفجر . فكنا لـــه منـــارا وزادا

رعشـــة النور فى سراجك يا صاح • ضاءت له الربا والوهادا
ومن الاهة الحزينة ، وافته من العز نغمـــــة تتهـــادى
اننا نزرع الورود على الدرب ، ونجنى من الورود القتـــادا
مرحبا بالقتاد يدمي خطـــانا ، مرحبا بالدماء تجلى الســـوادا

من كل ما تقدم ترى ان الادب الجزائرى الحديث ، كان لوحة تصطبغ بالوان الثورة ، وتتاطر بمعنى الحرية • كان ادبا معطاء اغنى الادب العربى بصور ذات ابعاد عميقة ، وبافكار فيها أندلاع الثورة ورقة الفن الشاعرى الاصيل •

الادب التونسى

حينما نستعرض الحركة الادبية فى تونس نجد ان ثلاثةاتجاهات واضحة المعالم قد اثرت تاثيرا جذريا فيها وهذه الاتجاهات هى :ـ

اولا : الزيتونية :ـ وقد قاد حركتها اساتذة وشباب جامع الزيتونة الشهير الذى مضى على تاسيسه ١٢٧٢ سنة ويعتبر من اعظم المراكز الثقافية التى وجهت الحركة الفكرية والادبية لا فى تونس وحسب وانما فى المغرب العربى باسره .

ثانيا : الصادقية : وهى الحركة التى انبثقت على اثر تخرج اول مجموعة من الطلاب من المدرسة الصادقية عام ١٨٨٢ ، والتى تمتاز عن الزيتونية بتغلغل الفكر الغربى فى علومها وآدابها ، حيث كان اغلب الطلاب الذين تخرجوا منها قد سافروا الى فرنسا للاستزادة من العلوم والمعارف ، وقد تبلور اتجاهها العصرى اكثر حينما اتجهت الى البعوث العلمية ترسلها الى فرنسا لتعود محملة بالثقافة الغربية الحديثة تمس بها الحياة الفكرية فى تونس .

ثالثا : الخلدونية : وهى تنتسب الى الجمعية الخلدونية التى أسست عام ١٨٩٦ وجمعت ما بين الزيتونيين والصادقيين برباط الثقافة الحديثة المؤمنة فى نفس الوقت بالتراث العربى والتعاليم الاسلامية . والتى انطلقت تحرك الحياة الفكرية فى تونس بروائع الاعمال وترفع عن المكتبة التونسية غبار السنين لتمدها بحياة جديدة نامية .

ولابد من الاشارة هنا الى ان من اسباب اندفاع الحركة الادبية فى تونس الى الامام ومحاولتها اللحاق بالركب الحضارى العالمى الجديد ، هو الصراع الحاد الذى خاضه ادباء تونس ضد سلطات الاحتلال الفرنسى الذى نزل الارض التونسية عام ١٨٨١ . حيث اتخذ ذلك الصراع لونا من التحدى الثقافى الجديد للمبادىء والافكار الوافدة المفروضة .

كما لا ننسى ايضا ذكر بعض الشخصيات المهمة التى لعبت دورا كبيرا فى بث روح التجدد والدعوة الى الثقافة الحديثة المعتمدة على مصادر الفكر الاسلامى كالامام محمد عبده الذى كان لزياراته المتعددة الى تونس ، ولمجلة المنار التى كانت تحمل مبادءه وآراءه ، الاثر الكبير فى دعم الحركة الفكرية . كما لا ينسى فى هذا المجال فضل الشيخ عبدالعزيز الثعالبى والشيخ محمد طاهر بن عاشور والشيخ محمد النخلى الذين هزوا الاوساط الادبية ببلاغتهم وعمق آرائهم وجدتها .

وقد استمرت الحركة الادبية فى تونس على المضى فى منهجها الجديد الذى بلورته الخلدونية فى اطر الخطابة والنقد السياسى والمجادلات العلمية ذات الصبغة الدينية والشعر ، وكانت اساليب الادباء التونسيين فى هذه الفترة قد تاثرت بما كان ينشر فى مجلات المقتطف والهلال والضياء والمنار من مقالات وقصائد حديثة المبنى عميقة المعنى . وهذا التاثير يظهر جليا فى المقالات والبحوث والقصائد التى كان ينشرها التونسيون فى مجلاتهم الراقية كالصواب وخير الدين لصاحبهما الكاتب التونسى البليغ محمد الجعائبى .

وقد بدأ الادب التونسى الحديث ياخذ درب التطور ويسير فى مسالك ذات اغراض جديدة فى اوائل هذا القرن حينما راح محمد بن الامير الخلصى ينشر مقالاته التجددية بعنوان «حديث مع الراية» فى جريدة الصواب . وينشر محمد بن الخوجه مقالاته الوصفية فى ادب الرحلات وينشر الشاعر المجدد صالح سويسى صاحب ديوان (زفرات الضمير) قصائده ذات الاهداف النبيلة الاصلاحية والذى يعتبره الكاتب الكبير محمد الفاضل بن عاشور (لسان الاحساس القومى فى تلك الفترة .) وينشر حسن حسنى عبدالوهاب مقالاته الواسعة فى التاريخ والادب .

أما الرواية والقصة والمسرحية وهى الوان جديدة على الادب التونسى الحديث فلم تظهر من قبل حتى ١٩٠٦ حينما نشر الشاعر القيروانى صالح سويسى اول رواية تونسية بعنوان (الهيفاء وسراج الليل) على شكل حلقات فى مجلة خير الدين . وقد بدات المسرحية تاخذ طريق

المحاكاة والترجمة اول الامر ثم خرجت عن ذلك النطاق حينما ألف محمد الجعايبى عام ١٩١٠ اول مسرحية تونسية بعنوان (السلطان بين جدران يلدز) ثم تعاقب على كتابة الروايات فى اسلوب طريف ممتع كل من محمد العربى الجلولى واحمد خيرالدين : وبقى الشعر سباقا فى حلبة الادب التونسى الحديث حيث برز فى هذه الحقبة من الزمن شعراء جددوا فيه وفتحوا ابوابا واسعة لاغراض كثيرة. ويقف على رأس قائمة الشعراء المجددين صالح سويسى ، الذى برز فى الرواية كما اوضحنا من قبل ، وسالم بن حميدة والصادق الفقى وحسين الجزيرى وابو الحسن شعبان والهادى المدنى ومحمد الشاذلى خزنه دار ومصطفى اغا ومحمد السعيد الخلصى .

ان الاعمال الفكرية والادبية التى اشرنا اليها من قبل هى التى مهدت للخطوات الجيدة الواسعة فى الادب التونسى الحديث ، والتى سار بها ادباء حققوا نجاحات طيبة فى تطوير الحركة الادبية لا التونسية وحدها بل العربية بشكل عام .

ولعل الثلاثينات من هذا القرن تكشف عن نتاج ادبى رفيع فى الخطابة والشعر والرواية والمسرحية والنقد والبحث . فقد ظهرت فى هذه الحقبة مجلة تعنى بالنواحى الابداعية فى الادب ذات مستوى رفيع فى مادتها وشكلها الا وهى مجلة (العالم الادبى) التى ادارها احد افذاذ الادب فى تونس الا وهو زين العابدين السنوسى فى كانون الثانى عام ١٩٣٠ كما ظهرت فى هذه الفترة بالذات مجلة ادبية تاريخية باسم (الزيتونة) رأس تحريرها محمد المختار بن محمود . ومجلة اخرى باسم (الجامعة) حملت لواء الدعوة الى التجديد مع الاعتزاز بالتراث ورأس تحريرها الشيخ محمد الصالح النيفر و (الثريا) و (الاسبوع) لصاحبهما نورالدين بن محمود . وبالاضافة الى هذه النهضة الصحفية الادبية برز الى الوجود النادى الادبى للصادقيين والمجمع الادبى للخلدونيين واصبح هذان المنتديان مركزين للاشعاع الفكرى . فى هذه الثورة من الزخم الادبى برز ادباء وشعراء تفننوا بتعابيرهم وركزوا على المفاهيم الحديثة فى الادب والفن اجمالا وتاثروا بالادب الغربى ، كابى القاسم الشابى ومحمد الحليوى ومحمد الفاضل

بن عاشور وعثمان الكعاك والكاتب المسرحي المجدد محمد الحبيب الذى كتب مسرحيات من صميم الحياة التونسية كـ (يوم غرناطة) و (الزوجة الثائرة) والهادي المدني الذى تحول الى نظم الملاحم . وعبدالرزاق كرباكة (الذى كتب مسرحية ولادة ابن زيدون) واحمد المختار الوزير وخليفة السطنبولي ومصطفى خريف (الذى راح هو الآخر ينظم في الملاحم) ومحمد عبدالخالق البشروشي . ولكن الذى وجه الحياة الشعرية والادبية في هذه الفترة ولفت الانظار الى نتاجه العميق ذى المسحة الحزينة ، هو الشاعر التونسي المبدع (ابو القاسم الشابي) . واذا ما رجعنا الى نتاج هذه الحقبة حتى نهاية الحرب العالمية الثانية نجد ان مواضيع الادب التونسي لا تخرج عن خطين بارزين يمثلان التيار السياسي الاصلاحي الاجتماعي من جهة ، والتيار الذاتي الجامح من جهة اخرى .

والنماذج على الادب التونسي كثيرة ومتشعبة الا اننا سنحاول ان نقدم لمحات شعرية في مجالات هذا الادب .. مثل صالح سويسي ، حينما ينادي لمؤازرة الهلال الاحمر بنداء اصلاحي يستثير فيه النخوة ويقوى الهمم في قصيدته التي عنونها بـ (جريح العرب) :

شهم هوى في سبيل الله رضوانا
قد خاض من بأسه في الحرب ميدانا
بالحزم مرتفع بالعزم مندفع
يحمي بصارمه دنيا واوطانا
ابدى العجائب في الحرب التى شهرت
على بني وطني ظلما وعدوانا

الى ان يختمها بقوله :

هيا ابذلوا في علاجي المال واغتنموا
كيما اعود الى الهيجاء جذلانا

وهذا مصطفى خريف يناجي ايام الطفولة في قصيدته (ذكريات وخواطر) فنلمس روح التجديد في تعابيره :

ذكريـــات الصبا اعيدى على مسمع
قلبـــى ذات النشيد الشـــجيا
خاطبـــى قلبى الكليم وقـــولى :
كنت يا قلب كالمـــلاك خليـــا

× × ×

كنـــت كالمـــاء صافيا
وكزهر الروض غضا وكالربيع لطيفـا
كدر المـــاء بالبـــلاد وذوى الـــدهر
وصـار الربيـع فيـك خريفـــا

ولعل ابا القاسم الشابي ذلك الشاعر الذي تأثر بالادب المهجري وخرج على الادب العربي بأنماط جديدة في الشعر ، هو خير مثـال على تدفق الشاعرية ونضوجها وعلى الخيال الخصب السابح في الطبيعة ومعاني الطفولة والهيام في المطلق .

والامثلة على لونه الشعري هذا كثيرة منها قوله :

شعري نفاثـــة قلبـــى — ان جاش فيـــه شعـوري
لولاه ما انجاب عنـــى — غيـــم الحيـــاة الخطير
ولا وجـــدت اكتئـــابى — ولا وجدت ســـرورى
بـــه ترانى حزينـــا — أجر ذيـــل حبـورى
لا انظم الشعر ارجـــو — به رضـــاء الاميـــر
حسبى اذا قلت شعرا — أن يرتضيـــه ضميـــرى

او كقوله في هذا المقطع الشعرى الذى يعطى صورة جليـمة عن تاثره بادب المهجر :

كـل ما هب وما دب ومـا قام او حـم على هذا الوجـود
من طيور وزهـور وشـذى وينابيع واغصـان تميد
وبحـار وكهـوف وذرى وديار وبراكـين وبيـد
وضيـاء وظلال ودجى وفصول وغيـوم ورعـود
وثلوج وضباب عـــابر واعاصير وامطار تجـود
وتعاليم وديـــن ورؤى وأحاسيس وصمت ونشيد
كلهـا تحيا بقلبى حـرة غضة السحر كأطفال الخلود

ومن ألمع اوصافه الشعرية في حب وطنه قوله :

انـا يا تونـس الجميلة فى لـج
الهوى قـد سبحت اى سباحـه
شرعتى حبك العميـق ، وانـى
قـد تذوقـت مره وقراحـه
لا ابـالى • • وان اريقـت دمـائى
فدماء العشـاق دومـا مباحـه

أو كقوله :

ليت شـعرى
اى طيـر

يسمع الاحزان تبكى بين اعماق القلوب
ثم لا يهتف فى الفجر برنات النحيب
بخشوع واكتئاب

وانت تجد فى صور الشابى الشعرية ذات النزعة الفلسفية التشاؤمية روح العصر وملامح المآسى التى مرت على تونس وهى فى صراعها ضد الاستبداد والعبودية كقوله :

نحن نمشى وحولنا هذه الاكوا
ن تمشى لكن لاية غايه
نحن نشدو مع العصافير للشمس
وهذا الربيع ينفخ نايه
نحن نتلو رواية الكون للمو
ت ولكن ماذا ختام الروايه
هكذا قلت للرياح فقالت
سل ضمير الوجود كيف البدايه ؟

أو كقوله فى هذه الصورة الحزينة :

وتغشى الضباب نفسى فصاحت
فى ملال : الى اين امشى ؟
قلت : سيرى مع الحياة فقالت
ما جنينا ترى من السير امس ؟

فتهــافت كالهشــيم عــلى الار
ض وناديت : اين يا قلب رفشــــى ؟
هــاته ، علنى اخــط ضريحــى
فى ســكون الدجى وادفن نفسى ! ٠

× × ×

والشعر التونسى الحديث ـ كما ترى ـ له الوان وصور ومرئيات، وفيه تدفق سحرى ، ومشاعر جياشة ، واوصاف حية متحركة ، وقد عبر عن كل ذلك الشاعر الشابى فى مقاله « الشعر : ماذا يجب ان يفهم منه ؟ وما هو مقياسه الصحيح » حيث قال (الشعر ياصديقى «تصوير وتعبير» تصوير لهذه الحياة التى تمر حواليك : مغنية ، ضاحكة ، لاهية ، او مقطبة ، واجمة باكية ٠ او وداعة حالمة ، راضية او مجدفة ثائرة ، ساخطة ٠ او تصوير لاثار هذه الحياة التى تحس بها فى اعماق قلبك وتقلبات افكارك وخلجات نفسك ، ورفرفـة احلامك وعواطفك ٠ وتعبير عن تلك الصور اوهاته الاثار بأسـلوب فنى جميل ، ملؤه القوة والحياة ، يقرأه الناس فيعلمون انه قطعـة انسانية من لحم ودم وقلب وشعور لانهم يحسون انه قطعة من روح الشاعر ، وعبق عواطفه او فلذة حية من فؤاد الحياة ٠)

×

وفى بداية ـ الخمسينات ـ ينطلق الادب التونسى الى مرحلـة جديدة اخرى فيظهر الشعر الحر بشكل واضح ومثير ويتناول الشعر العمودى اغراضا تتطلبها روح العصر ٠ وتتميز القصة والروايـة بالتحليل والعمق والحـوار الداخلى والحركة الحسية كروايـة على الدوعاجى (جولـة بين حانات البحر الابيض المتوسط) المنشورة عام ١٩٦٤ ، اما المسرحية فتعبر عوارض المحاكاة والحوار الرتيب ، الى عوالم فسيحة من التعبيرات المدروسة والحوار الفنى والموحيـات الرمزية البعيدة عن مجالات التهويل والخطابة ٠ وتتطور مفاهيم النقد فتخرج من نطاقها التقليدى فى القدح والمدح الى الجانب العلمى ٠

وتستمر هذه النهضة الادبية تحمل ثمارها صحف ومجـــلات قيمة (كالمباحث ومكارم الاخلاق الصفاقسية والثريا والاسبوع والشعب والعمل والجيل الجديد) وتتناقلها المنتديات والمعاهد الادبية (كرابطة القلم الجديد والنادى الادبي التابع لدار الثقافة ، واللجنة الثقافيـة المركزية) ، حتى تبدأ مجموعة اخرى من الادباء الشباب تشق طريقها اليوم في الادب التونسي الحديث فتضع نتاجا ادبيا قيمنـــا بالدرس والمتابعة ، من امثال ابى القاسم محمد كرو ونور الدين حمود وحسن نصر ومصطفى الفارسي الذى حاز على جائزة الدولة لعام ١٩٤٦ عـلى قصته (المنعرج) وزبيدة بشير ومحمد المختار الجنات مؤلف روايـة «ارجوان» التى يعالج فيها عهد المقاومة ضد الاستعمار فى تونـــس وبوبكر سعيد مؤلف مسرحية (النهاية) التى استعرض فيها تاريـخ دولة قرطاجنة · ومحمد الصالح الجابرى مؤلف مسرحية « كيف لا احب النهار » والتى تتناول عهد المقاومة ايضـا · وعثمان بـــودن مؤلف رواية (فرحة الحياة) وعبد المجيد عطية مؤلف رواية (المحكوم عليـه) ·

×

الادب الليبي

مر الادب الليبى فى مرحلتين هامتين قبل الاستقلال ، كان لهما أثر كبير في انطواء ذلك الادب على نفسه ، وعدم انطلاقه فى اجواء التجديد والانعطاف نحو آفاق الاداب الحديثة ٠

وتظهر اولى هاتين المرحلتين فى السيطرة العثمانية على ليبيا والتى دامت اكثر من ثلاثة قرون ونصف ، حيث ذاق الشعب العربى فى ليبيا شأنه شأن الشعوب العربية الاخرى فى مختلف اجزاء الوطن مرارة الحرمان من لذة الحرية ومعاني التقدم والرقى ٠

فقد كان الشعب هناك مغلوبا على أمره ، ينام على التعسف ويصحو على الطغيان ٠ واضحت تلك الفترة من الفترات المظلمة فى تاريخ الادب الليبى ، وكان لسياسة التتريك التى اتبعها الاتحاديون وهم يلفظون انفاسهم الاخيرة فى بداية هذا القرن ، العامل الفعال في طمس بوادر النهضة الادبية والاندفاعات القومية من اجل ابراز حقيقة التراث العربى واصالة اللغة العربية وطاقاتها فى التعبير والانشاء ٠

وما كادت ليبيا تتنفس الصعداء بعض الشىء حتى مرت فى المرحلة الثانية من مراحل التقهقر والانطواء والتخلف عن مفاهيم العصر فى الفكر اجمالا ٠ فقد احتلت ايطاليا ليبيا وسيطرت على مقدرات البلاد ، وحاصرت الثقافة ونشاطاتها وضربت طوقا من حديد على الحركة الفكرية ٠

وفى هذا يقول السيد خليل القلال سفير ليبيا السابق فى القاهرة فى محاضرة القاها فى جمعية عمر المختار عام ١٩٤٣ « قضينا معظم حياتنا نئن تحت الاستعباد مدة طويلة ،سيطرت علينا فيها يد المستبد، فحرمتنا لذة العلم واوصدت فى وجوهنا ابوابه وابعدتنا عن مناهله، ففى مدة الاحتلال الاسود التى تربو على الثلاثين سنة حرمنا من المشاركة فى الفنون ، والعلوم العصرية ، فلا تاريخ لنا يدرس ، ولا

لغة لنا تلقى ، ولا اداب لنا تنشر ، بل حجب عنا مطالعة الجرائد والمجلات التى ترد الينا من الاقطار الشقيقة ، فبقينا منعزلين عن العالم العربى وعن الحياة الاجتماعية ٠٠»

هكذا كانت ليبيا تحت وطأة الاستعمارين العثمانى اولا والايطالى ثانيا ٠

لقد كان للكبت ، والمطاردة ومصادرة الحريات الاثر البعيد فى ضياع الكثير من اثار الادباء فى تلك الفترة ، فقد كان ادباء ليبيا يلجأون الى الكتابة باسماء مستعارة تارة ، والى نشر اثارهم بين الناس شفاها خوفا من السلطة المحتلة التى كانت تحارب كل فكر قومى وتطارد كل اديب يحاول ان يعبر عن ماساته وماساة بلاده ٠

وفى هذا الصدد يذكر محمد الصادق عفيفى فى كتابه القيم « الشعر والشعراء فى ليبيا » ان نجل الشاعر الليبى أحمد الشارف حكى له : ان كثيرا من شعر والده قد ضاع ، لانه لم يكن له متنفس ، ولو حاول والده ذلك لحورب بل صودر رزقه ، وكان الكثير من شعر الشعراء يولد ليموت بهذه الطريقة » ٠

على ان هذا الكبت والضغط ساعدا على تشبث ادباء ليبيا باللغة العربية واندفاعهم نحو التراث العربى يقرأونه بامعان ويدرسون فصوله بكثير من الشغف والجد ، وكانهم يحاولون بذلك ان يضعوا حدا للسيطرة الايطالية على مقدراتهم وتفكيرهم ٠ ولا ننسى فى هذا المجال اثر البحوث التى كان يقوم بها الليبيون الى مصر كذلك اثر الازهر والمعاهد المصرية الاخرى فى بث الوعى الفكرى بين ابناء ليبيا ولعلنا لا نغالى هنا اذا ما قلنا بأن الصحافة الادبية فى ليبيا قامت بدور طليعى فى نشر انتاج الادباء والشعراء الليبيين وقد تعرضت تلك الصحف الى التعطيل والسد والمصادرة فى كثير من الاحيان : ومن ابرز تلك المجلات والصحف التى نشرت لادباء ليبيا قبل الاستقلال هى (الكشاف) لمنشأها محمد الانصارى عام ١٩٠٨ و (العصر الجديد) لمؤسسها محمد على البارودى ، عام ١٩١٠ ، و (العدل) لمؤسسها عبدالله عريبى بانون عام ١٩١٩ و (الوطن) لمؤسسها عوض ابو نخيله عام ١٩٢٠ و(ليبيا المصورة) لمنشأها عمر فخرى المحيشى عام ١٩٣٥ وغيرها ٠

الا ان وضع الادب فى ليبيا لم يبق على جموده واخيلته ومراميه المحدودة ، وانما انطلق فى نهاية السيطرة الاستعمارية وبعد الاستقلال من معقله ، وراح يكون شخصيته النامية فى عالم الادب العربى . واخذ الادباء الليبيون يفكرون جديا فى فتح ابواب جديدة امام الادب الليبى لكى يساير ركب التحرر الفكرى والانطلاقةالتطورية التى اخذت تهيمن على الادب العالمى بشكل عام فى منتصف هذا القرن .

وبهذا يقول المهدى ابو حامد فى مجلة (القلم الجديد) « املنا قوى جدا بعد ذلك الانصهار الطويل والصمود المدعم بروح الايمان العميق والمصطبغ بالوان مختلفة من الفخار والبطولة أمام الحوادث والاحداث،أملنا قوى بعد كل الذى فات.. ان نكتب،ونتجاوز ونتخاصم حول كل موضوع فى ميدان العلم والادب والفن لننتج النهضه الادبية التى نرضى عنها » .

لقد نضجت النهضة الادبية فى ليبيا حقا ، وشقت طريقها لتنشر على العالم العربى ، شعرا وقصة ومسرحية ومقالة وبحثا ،واستطاع الادباء الليبيون فى فترة قصيرة من عمر الزمن ان يستوعبوا المرحلة التى تمر بها بلادهم وان يسايروا ركب الحضارة العربية المتطورة وان يأخذوا بمختلف النظريات ووجهات النظر الحديثة فى الفن والادب . فظهرت المجلات الادبية القيمة ـ كشعلة الحرية ـ والليبى ـ والمرصاد ـ والافكار ـ والرائد ـ والضياء ـ وغيرها . وبرزت دواوين الشعر والمؤلفات المسرحية والروائية حيث تعدت مطابع ليبيا الى مطابع البلدان العربية ، وانتشر نتائج ادباء ليبيا فى شتى المجلات الادبية العربية يعلن عن اصالته وقوة تعبيره .

وقد عالج ادباء ليبيا اضرابا مختلفة من الوان الادب واغراض الشعر ، فى الوطنية والاجتماع والغزل ، والحكمة ، والطبيعة والوصف .

كما عالجوا النواحى الفنية فى نتاجهم كالحوار والتداعى ، والتداخل الوصفى ، والتعبير الحسى المهموس ، والمزج بين العامية والفصحى فى القصة والمسرحية الى غير ذلك من الاساليب والمضامين كما عالج بعض الشعراء فى قصائدهم الوان الشعر الحر .

×

فى هذه المرحلة من الادب الليبى برز فى الشعر عدد كبير من الشعراء الشباب الى جانب الرعيل الاول حيث يقف فى طليعتهم احمد رفيق المهدوى وابراهيم الاسطى عمر ومحمد الطيب الاشهب ومحمد منير البرعصى واحمد قناية واحمد على الشارف واحمد الفقيه حسن وسعيد احمد المسعودى وسليمان عبدالله البارونى ومحمد امين الحافى، ومحمود محمد عبدالمجيد المنتصر ٠

وقد قام الشعراء الشباب فى ليبيا بمحاولات ناجحة فى سبيل تجديد المعانى الشعرية بالابتعاد عن المحسنات واساليب الصنعة وفتح المجال امام الشعر ليتغنى بالالوان الطريفة التى تتفق وتقدم العصر وتطور البيئة العربية ٠

ومن بين هؤلاء الشعراء الشباب المجددين احمد فؤاد شنيب وحسين الغناى رجب ومفتاح الماجرى وسليمان محمد تربح وعلى صدقى عبدالقادر وعلى محمد الديب وعلى محمد الرفيعى ومحمد ميلاد مبارك وراشد الزبير السنوسى ٠

اما القصة فى الادب الليبى فما زال بعضها يمر بطور النمو واستكمال الشخصية وبهذا يقول الاديب الليبى يوسف الشريف « ــ غير ان الذى يشرف القصة فى بلادنا حقا هذا الاختلاف فى المعالجة ، الاختلاف فى التناول ٠ الاختلاف فى الشكل ، ان ذلك وحده هو الذى ادى بالمحاولات غير الناضجة ، والاعمال التى اطلق اصحابها عليها عنوة قصصا قصيرة ذات يوم من الايام الى ان تشطب من القصة وتنسحب من تلقاء نفسها من الميدان.فاختفت واصبحت كان لم تكن٠٠ على ان الامر بالنسبة للكتاب الشباب الذين بدأوا فيما بعد سنة ١٩٥٧ يختلف عن سابقيهم غاية الاختلاف ٠ ان القصة عند هؤلاء جاءت واقفة على اقدامها منذ البداية وجاءت ظلال المنهجية تفوح فى معظم اعمالهم الادبية فاكتسبوا نصيبا وافرا من الجدية ، وحظا لا يستهان به من الموقف وقسطا كبيرا من المعاناة الصادقة ــ ٠»

اما كامل مقهور فينظر اليها من زاوية اخرى فيرى ان القصة الليبية مواكبة لاكتشاف أرباب القلم للانسان الليبى ككائن حى ، له حياته الخاصة وله ارتباطه الاجتماعى والاقتصادى والثقافى بتربة

وطنه : ويوضح ذلك فى البحث الذى تقدم به امام مؤتمر كتاب المغرب العربى عام ١٩٦٩ حيث يقول « ان تجربتنا فى القصة حديثة بدأت حينما اكتشفنا انساننا فى ليبيا : واننا كتبنا عنه ليس كنموذج ، كشريحة فى المعمل ، كعينة من اصناف المواد التى تعبا فى العلب مع المرطبات وصناديق الشاى وقنينات الخمور المغشوشة . حادثناه اول ما عرفناه ونحن نخوض معه تجربته الانسانية فى الوقوف ضد القوى التى حاولت ان تصده كحيوان برى غير مروض . صنع حياته الحديثة عن عفوية وبغريزة طبيعية فصنعنا اشكالنا بعفوية وبموهبة حقيقية . بعدنا آنذاك عن الاشكال المسبقة والقوالب المصنوعة وتركنا الانسان يصنع شكل قصته ، بل اننا تعثرنا فى الشكل واللغة والحوار ، لان انساننا كان يتعثر آنذاك فى مجتمعه وفى لغته ،ويختلف حتى فى حواره . »

وبعد ان يستعرض مقهور ، نماذج لكتاب القصة فى ليبيا يقرر حقيقته المستنتجة من انعكاسات لا تفاؤلية فيقول « اكتشفنا اننا توقفنا » وان معين تجربتنا قد نضب » وان مرحلة الوعى لم تعد كافية لان نكتب القصة كما كنا نكتب » وان التهامنا للاطعمة الجاهزة وعلب الطعام المجففة لم تعد كافية لان نعبر عن شعبنا » واننا نتجشا كما ناكله دون ان يكون له الا روائح كريهة غير مستساغة : والسبب اننا فقدنا انساننا الذى بدأنا فى الكتابة عنه ، الغباء يسطر خطوطه على ثيابنا «وارجلنا تحجزها عن الارض الصلبة احذيتناالجديدة» وحوارنا يلونه البهرج ويفقد حرارة الدفاء الساخنة فى عروق انساننا « ان رحلتنا هذه قد أصبحت رحلة ذهنية » تستورد لها الشكل «نحلل لها المضمون » نبحث لها عن تفسير فلفسى او مدلول اجتماعى « نزوقها بنقل نصوص ربما صرفنا بعضها او اكلنا جزءا منها : نتوه فى الشوارع المرصوصة الملونة الارصفة « المتلالئة الاضواء » تخططها سلطمات البلدية وتطلق عليها الاسماء : وانساننا يعيش فى القرى والنجوع وشوارع المدن القديمة « يتسول المعرفة واقدامه تتعبها المسيرة الشاقة الدائبة » .

ومع كل هذا فقد لمع اليوم في القصة القصيرة والرواية في الادب الليبي ادباء شباب كيوسف شريف في مجموعته القصصية - الجدار - وخليفة التكبالي في مجموعته المسماة - تمرد - وبشير الهاشمي في قصته الجديدة - لعبة الصيد والغزال - وعبدالله القويري في قصته الجديدة ايضا - كلبي الصغير - .

ولعل المسرحية الليبية ، التي بدأت تأخذ سبيلها في دنيا الادب وتشق لنفسها طريقا جديدة في الواقعية الحديثة ، سيكتب لها الازدهار في فترة قصيرة من الزمن وتأخذ مكانها اللائق بين المسرحيات العربية .

لقد عبر عن هذه المرحلة الناقد الليبي كامل حسن المقهور بقوله - ان نشوء العمل الروائي كان مرتبطا الى حد ما بالحصول على الاستقلال وانفتاح فرجة الاتصال بالعالم الخارجي . فابتدأت المحاولات الاولى للقصة الليبية وللمسرح الليبي في خمسينات هذا القرن واستلم زمام الثقافة منذ اول نشأتها ابناء من الشعب نفسه .

ولابد لنا ونحن نتطرق الى الجانب المسرحي في الادب الليبي من الاشارة الى اديبين بارزين في هذا المجال هما عبدالله القويري الذي يعتبر احد اركان المسرحية الواقعية في ليبيا وعبدالحميد المجراب صاحب التمثيليات القصيرة ، ويظهر نتاج هذين الاديبين واضحا في - العطش - للقويري - و - بلادك يا صالح - للمجراب ، كما لابد من الاشارة الى مسرحية - البحر لا ماء فيه - لاحمد ابراهيم الفقيه والى - البنية كبرت - لعلي ابوزقيه .

وفي ليبيا اليوم ، كتاب مقالة ونقاد ادب في الطليعة من الادباء الليبيين المشهود لهم بالعمق والاصالة والتتبع من امثال الكاتب الموسوعي علي مصطفى المصراتي والتليسي وعبدالحميد فرحات وفوزي طاهر البشتي وامين مازن ومحمد الزوي وعبدالهادي الحوات وكامل حسن المقهور وغيرهم عشرات .

على ان الشعر ما زال هو النموذج القوي القادر على اعطاء صورة واقعية عن مجالات الادب الليبي المتنوعة ، فلابد اذن من تقديم باقة ملونة تمثل ذلك الشعر الحي اصدق تمثيل .

هذا الشاعر الكبير احمد رفيق المهدوى ، الذى يعتبر عنـوان الشعر الوطنى فى ليبيا يستحوذ على الاحاسيس ويهز الوجدان بقصائده الحماسية الرائعة ونزعته التجددية ، يخاطب ايطاليا بعد الاستقلال فيقـول :

ذكرنا عهـدك الماضـى فقلنا :
« وفى الماضى لمن بقى اعتبـار »

فهـل وعظتك احـداث الليـالى
بمـا فيها اعتبـار وادكار ؟

وهـل ايقنت ان الحـق يعلـو
وان عواقب البغي البوار ؟

اما الشاعر الذى يقف معه على مستوى واحد من الجزالة وقوة السبك والمعانى الوطنية ، فهو احمد الشارف الذى يسمى ـ شيخ شعراء ليبيا ـ واليك جزء من احدى قصائده الوطنية :

رضينـا بحتف النفوس رضينـا
ولم نرض ان يعرف الضيم فينا

ولم نرض بالعيش الا عزيـزا
ولا نتقى الشر ، بـل يتقينـا

فما الحر الا اذا مـات حـرا
ولم يرض بالعيشـ الا امينـا

وما العـز الا لمن كان يفـدى
ذمامـا ويفنى عليهـا الثمينا

وهذا شاعر آخر ، يعتبر فى طليعة شعراء ليبيا ، اكثرهم قدرة على التحكم فى الفكرة ووحدة الموضوع ، واغزرهم عاطفة ورقة واصالة ذلك هو ابراهيم الاسطى عمر ، الذى هجر ليبيا بعد ان استحكم فيها الاستعمار ، فحل فى مصر والشام وبغداد والقدس وعمان ، وانشد الملايين العربية روائع شعره :ـ

بالله يا قلبى ... ارحنى
من عــــذاب الذكريات
وارحــــم بقية هيكــــل
كالال اضحى فى الفــلاة
لم لم يئن من العــــذا
ب لمـــا رآتـــه المبصـــرات

وتراه فى هذا المقطع يتعرض للحروب ومآسيها ، فيخاطب ابا العلاء المعرى مستفهما عن المعانى التى تكمن وراء القتل والتشريد والوحشية :

ابا العلاء وانت اليوم منتســـب
لعـــالم طاهر من كيد اشــرار
ماكنت تصنع لو شاهدت عالمنـــا
والناس للحـرب اغنـام لجـزار
هل تشترى صحف الاخبار تعلن عن
قتـل الالوف وعن تدمير امصــار
أم كنت تقبــع كالمعتاد مبتعـدا
عن سائر الناس فى ركن من الدار

اما على صدقي عبدالقادر فهو شاعر الشباب في ليبيا والداعية الى التجديد ، تأثر كثيرا بادب المهجر ، ولكنه حافظ على شخصيته الشعرية من الضياع في دنيا المحاكاة : وقصيدته (دماء تحت النخيل) تعطى لمحة عن ذلك : ـ

اينما وليت وجهى ، كـــان يلقاني الشـــهيد
وعـــلى عاتقـــه الاعوام ، والماضـــى البعيـــد
حامـــلا حفنة ترب من ثرى ليبيـــا المجيـــد
وبها ضمـــد ما مزق من حبـــل الوريـــد
قائلا ، في هـــذه التربة ريح للحـــدود
وعلى ذراتهـــا التاريخ يبنى ويشـــيد
ها انا الآن بذكـــراى الى قومى اعـــود

اما راشد الزبير السنوسى ، ففى شعره نغمة عربية المطالع تغزو القلوب وتتهامس عليها العيون ، فيه غزل رقيق وفيه حماســة بدوية ، وفيه جدة وتجديد : ولا اراني اغالى في بلدي وهو رافد من نهر العروبة حينما اورد له «ليلته العراقية» حيث يقول فيها :

عربـــد الوجد في الفـــؤاد اشـــتياقـــا
وامتطى شهوة وفـــك الوثاقـــا
ومضـــى غير عـــابئ بالاعاصـــير
ولا الليـــل كى يـــزور العراقـــا
يســـأل الصفتين حـــين يوافيـــه
نســـيما يرطب الاحتراقـــا

يسال الشط عن ليالى بغـــداد
وذوب التمـــور فيهـــا مراقـــا
وعن الاعـــين التى تاخـــذ اللب
لا ترتضى ســـواه صداقـــا
واذا ما تطـــل ساهرة الليـــل
تشـــد القلوب والاعنـــاقا
فتغوص النفوس فى عمق عينيهـــا
قرارا وتســـتلذ العناقـــا
ثم لا تطلب النجـــاة فســـيان
اتطفـــو أم تبلـــغ الاعماقـــا

ومن شعره القومى قوله فى قصيدة «يسائلون» التى يقتحم فيها مهاوى التخاذل :

يسائلون يا اخى عن الجراح كيف لا تنـدمـــل
ونزفها الدافق فى البطـــاح ما له يشـــتعل
فقل لهم
ليغســـل العـــار وعرضـــا يســـتباح
وجيلنا سواعد تعشق طعنة الســـلاح
بنظرة ثابتة الى الامل
ووقفة صامدة بلا ملل
تزلزل الليل تمزق الغطاء
لتحضن الغارق فى الدموع والدماء

هناك فى القدس مطالع الضياء

× × ×

أجيبهم بكل ما سيحفظ الصغار
بالحقد يزرع الجبال والسهول والقفار
ينبت فى الصدور ألف عزمة وقار
ولن يرى الليل على شموخنا انتصار
وجولة الباطل لن تعيش فى الدوار
سيسقط القناع والخداع فى انتحار
لترجع الفرحـــة بعد غربة لدار
وتزرع النجوم فى سمائنا ازهار
ويرقص النسيم وهو يحضن الثمار
ويسبق الربيع فى طلوعه آذار
ليطلق الصغار من براثن الدمار
بوثبة انتصار وبسمة افتخار

الادب المصري

كانت مصر على عهد المماليك غارقة في ظلام دامس يحـول دون تطلع ابنائها الى ما وراء الحدود حيث ثقافة فكرية تعتمد منابع الحياة ومنها على وجه التخصيص ، تلك النهضة العصرية التي ينساب من معينها ، رقيق الشعر واصالة الادب ، وجدة التعبير ، وعمق الفكرة .
وحينما احتل نابليون بونابرت ، وهو على رأس الحملة الفرنسية ، مصر عام ١٧٩٨ ، حيث رافقه عدد كبير من العلماء الفرنسـيين ورجال الفكر والادب ، حاول ان يفتح نوافذ العلم والادب والفن لتشـرق شمس المعرفة على ارجاء القطر . وكان اول عمل مباشر خطى بهـذا الاتجاه نحو تحقيق ذلك المرمى ، هو تاسيس المجمع العلمي المصري في نفس سنة الاحتلال : حيث تكون من ثمانية واربعين عضـوا وزعوا على مواضيع شتى في العلوم الطبيعية والاقتصاد السياسي والاداب .. وقـد قام هـذا المجمع باعمال جليلة في البحث العلمـي ، فتحت افاقا جديدة امام ابناء الكنانة واثرت تاثيرا عظيما في ادب العصر ، كمـا حررت كثيرا من الرواسب والخرافات وقربت بين الثقافة العربية ذات النزعة الاسلامية ، وبين ثقافة الغـرب العصرية بمخترعاتهـا وادابها وفنونها . وحينما خرج الفرنسيون من مصر بعد ثلاث سنوات بقيت اثار الاسلوب الذى جاءوا به لتطعيم الادب المصرى بادب الغرب اساسا لانبثاق حركة ادبية واسعة النطاق بعدئذ . فقد لعبت البعوث العلمية ، والتي كان اغلب طلبتها من خريجي الازهر المتقدمين ، وكذلك الترجمة حيث مهدت لها مدرسة الطب التي انشات عام ١٨٢٦ ، دورا بارزا في بعث النشاط الفكري في مصر وتعميق مفهوم الثقافة الحديثة .
وقد كان الازهر هو المركز الاول الذى يسيطر على مقدرات الثقافة ويوجه حركة التعليم في البلاد في نطاق العلوم الدينية واللغوية والعقلية ، ولكن حينما اخذت جوانب الثقافة المصرية بالتفتح ، ومسايرة التطور العصرى ، انطلق الازهر من معقله القديم وثار على المفاهيم البالية في طرق

التدريس ، ونشط فى ارسال البعوث العلمية الى الخارج ، فاسهم بذلك فى قيادة الحركة الثقافية المتميزة بالعلمية ، بقسط وافر . ولا يغيبن عن الذهن ، بان للمطابع التى انشأت فى مصر ، وكان اولها تلك المطبعة التى جلبها نابليون اثناء احتلاله ، وللصحف التى صدرت عن تلك المطابع ، الاثر البعيد فى نشر الوعى الثقافى بين صفوف الامة. فقد اخذت المطابع بنشر الكتب الحديثة المترجمة الى جانب عنايتها بكتب التراث المحققة تحقيقا علميا حديثا ، وكذلك طبع الصحف التى كانت تنقل الاخبار والاوامر الحكومية فى بادئ الامر ثم تحولت الى جوانب أخرى ادبية تاريخية. وكان من أشهر مطابع تلك الفترة، المطبعة الاهلية التى انشأت عام ١٨٢١ والتى عرفت بعدئذ بمطبعة (بولاق) ذات الشهرة الواسعة فى طبع اشهر الكتب القديمة فى مختلف العلوم والاداب والفنون . اما الصحف ، فكان اشهرها واقدمها فى البلاد الوقائع المصرية عام ١٨٢٨ ثم جريدة الوطن فى القاهرة عام ١٨٧٧ والكوكب الشرقى فى الاسكندرية عام ١٨٧٣ ثم الاهرام فى الاسكندرية ايضا عام ١٨٧٦ : وبعد ذلك توالى اصدار الصحف السياسية والادبية والفنية ، كالمحروسة عام ١٨٨٠ والمقطم عام ١٨٨٨ والمؤيد عام ١٨٨٩ واللواء عام ١٩٠٠ : وكانت جريدة المؤيد مطمح كل اديب وشاعر وكاتب ، فقد اخذت على عاتقها نشر العلوم والاداب على نطاق واسع وكتب فيها اشهر ادباء العصر وشعرائه من مصر ومن مختلف الاقطار العربية .

ولابد هنا من الاشارة الى أهمية دار الكتب المصرية التى أسست عام ١٨٧٠ والتى اصبحت فيما بعد ، من اضخم المكتبات العامة فى الشرق الاوسط لما احتوت عليه من كتب نفيسة فى مختلف العلوم والفنون ومخطوطات قيمة ساعدت على تيسير المعرفة فى نطاق واسع .

فى هذه الفترة انتشر التعليم فى ارجاء القطر المصرى ، وغطت رسالته المدارس والمعاهد العالية ، واصبح التعليم اجباريا ومجانيا فى مراحله الاولى : وكان لنشوء الجامعة المصرية عام ١٩٠٨ وتطور جامعة الازهر الى مراتب التعليم العالى وزيادة عدد طلبة البعوث العلمية الى الخارج من اسباب تعاظم الثقافة فى مصر وارتفاعها ، وعلى مختلف المستويات ، الى مكانها البارز .

ومع أن الحـــركة الثقافية العصرية قد مست الفكر العربى فى مصر وحركت الاقلام الى معالجة النواحى الادبية بأساليب جديدة لـم يألفها الادب العربى فى تلك الفترة ، الا ان الشعر والمقالة والبحث لـم تخرج عن اطارها القديم الموغل فى الاطر البالية اذ بقى الشعر حابسا نفسه فى معان موصدة ، واخيلة مكررة ، وابواب الغزل والرثاء والحماسة والهجاء ، ابــواب مطروقة مقلدة تبدو عليها مســحة المحســنات البلاغية المجهدة ، وبقى البحث دائرا فى مجالات الشرح على المتـــون وتسقط الاخطاء • ولعل الانطلاقة الاولى التى حققها الادب ، شعرا فـى تلك الفترة كانت على يدى الوزير الشاعر محمود سامى البارودى الذى يعتبر عنوان النهضة الشعرية لا فى مصر بل فى اجزاء الوطن العربى كافة • فقد حقق هذا الشاعر الفارس نجاحا ساحقا فى اعادة الجرس وفخامة اللفظ ورصانة اللغة وعمق المعانى الى الشعر العربى بعد ان كان طيلة الفترة المظلمة متهافت العبارة ، كسيح المعنى تافه الاسلوب ، غارقا فى بحر من القوافى الميتة والالفاظ المبتذلة • ولا ينسى فى هـذا المجال أيضا فضل شاعرين كبيرين على تلك المرحلة الادبية هما اسماعيل صبرى وعبدالله فكرى • واذا كان البارودى وزميلاه قد برزوا فى الشعر وفتحوا آفاقا جديدة فقد تمكن ادباء آخرون كعبدالله نديم والشيـــخ ابراهيم اليازجى والشيخ على يوسف وحفنى ناصيف ان يمدوا النثر بطاقات نشطة من اصيل اللغة وبديع المبانى • ولم يقتصر النثر على الاتجاه الاتباعى التقليدى ، بل سلك طريقا ابداعيا الى حد ما تميز باليسر والاستقامة فى التفكير ، الا ان اسلوب معالجة المواضيع الادبية مال الى اللون الخطابى أكثر من ميله الى التعمق والابتكار ، على أن الادب المصرى آنذاك حاول ان يقتنص بعضا من المعانى ذات الانماط الاوربية التى تواردت عن طريق ترجمة روائع الادب الاوربى (الكلاسيكى) منه و (الرومانسى) •

لقد كانت هذه الفترة بمثابة التمهيد الى الحركة الادبية الهائلة التى سيطرت بعدئذ على الفكر العربى ودفعت به الى النهضة الادبية التى نلمس نتائجها اليوم • لقد تميزت تلك الفترة ، وحتى اوائل هذا القرن ، بالاهتمام بالادب ، وبأدب التراث بشكل خاص منه ، الذى كان

مهملا وغير مدروس دراسة اكاديمية صحيحة . اذ ما كـادت البعوث العلمية تعود من الخارج ، وما كادت المعاهد العليا تخرج تلاميذها فى زروع الادب كافة ، حتى بدأ هؤلاء بالانصراف الى كتب التراث يدرسونها بامعان ويحققونها باسلوب جديد ، فيخرجون على الادب العربى بشروح مستفيضة لتلك الكتب وينصرفون الى دواوين الشعر ينحون فيها منحى التحقيق وتبيان الجوانب الجمالية والتعبيرية والفنية فى نتاج الشعراء الاقدمين ، واستطاعت مطبعة بولاق ومن بعدها مطبعة القسم الادبى لدار الكتب المصرية ايضا ان تنشر على الملايين من ابناء العروبة روائع الادب بطباعة انيقة وتحقيق أمين .

نعود بعد هذا الى الكـلام عن شعر تلك الفترة فلـو امعنـا النظر فى النتـاج الشـعرى الذى سبق ظهـور البارودى لمـا وجدناه يختلف عن مثيله من شعر المحاكاة ، والالفاظ المفتعلة تقربـا للقافية ، ولا وجدناه ليبتعد كثيرا عن اغراض شعر الفترة المظلمة بشىء . الا ان انطلاقة البارودى الشعرية وفتحها لنوافذ المعانى الجديـدة ، والمبانى الفخمة والديباجـة الانيقة ، والصور الملونة ، جعلت للشعر العربى فى مصر متنفسا آخر لكنوز المعرفة وطاقات المبدعين : لقد تمكن هذا الشاعر الفارس الوزير ان يدفع بالالاف من ابياته وابيات غيره من الشعراء الذين لحقوا بركبه وساروا مسيرته ، الى ديـوان الشعر الشعب اذ لعب دورا طليعيا بارزا فى الثورة العربيـة الباسلة فى مصر . وقد قدم الى المحاكمة فحكمت عليه ونفته الى جزيرة (سرنديب) من أعمال سيلان .

ولعل البارودى ايضا هو من ابرع الشعراء فى وصف ذاته وتحديد معالم صورته كشاعر وفارس :

انا مصدر الكلم النـوادى
بين الحواضر والبـوادى
انـا فارس ، انا شـاعر
فى كـل ملحمة ونـادي

فاذا ركبت فانني
زيد الفوارس في الجلاد
واذا نطقت فانني
قس بن ساعدة الايادي

واليك لون آخر من الوصف الزاهي :

وللنسيم خلال النبت غلغلة
كما تغلغل وسط اللمة المشط
والريح تمحو سطورا ثم تتبعها
في النهر لا صحة فيها ولا غلط
وللمياه خيوط غير واهية
تكاد تجمع بالايدي فترتبط
كانها – واكف الريح تضربها –
سلوك عقد تواهت فهي تنخرط

كما اليك لون من الوصف النفسي الذي برز به البارودي

لا لوعتي تدع الفؤاد ولايدي
تقوى على رد الحبيب الغادي
يا دهر فيم فجعتني بحليلة
كانت خلاصة عدتي وعتادي
ان كنت لم ترحم ضناي لبعدها
افلا رحمت من الاسى اولادي

ومن البلية ان يسام اخو أسى
رعي التجلد وهو غير جماد
هيهات بعدك ان تقر جوانحي
أسفا لبعدك او يلين مهادي
ولهي عليك مصاحب لمسيرتي
والدمع فيك ملازم لوسادي
فاذا انتبهت فانت اول ذكرتي
واذا أويت فانت آخر زادي

بل لعل قصيدته التي يصف فيها الازمة الحادة التي مر بها معتقلا في جزيرة سرنديب من اعمال (سيلان) من المع قصائده واقربها الى تصوير الواقع المحزون الذي عاشه .

لافي (سرنديب) لي الف اجاذبه
فضل الحديث ، ولا خل فيرعي لي
أبيت منفردا في رأس شاهقة
مثل القطامي فوق المربأ العالي
اذا تلفت لم ابصر سوى صور
في الذهن يرسمها نقاش آمالي
تهفو بي الريح احيانا ، ويلحفني
برد الطلال ببرد منه اسمال
ففي السماء غيوم ذات اروقة
وفي الفضاء سيول ذات اوشال

فلو تراني - وبردي بالندى لثق -

لخلتني فرخ طير بين ادغال

واذا كان البارودي هو الفاتح في الشعر العربي الحديث في مصر فان شعراء اخرين حاولوا ان يستفيدوا من تجربته وان يطوروا الشعر كل على قدر امكاناته وما توفر له من مناخ شعري خاص يعينه على نتاجه ٠

فعبدالله فكري واسماعيل صبري وحفني ناصف والشيخ عبدالمطلب بن واصل ٠٠ كانوا في طليعة شعراء تلك الفترة غذوا ديوان الشعر العربي بروائع القصائد ، فيها رقة وسبك ومعان جميلة فريدة:

وحسبك ان تقرأ مرثية اسماعيل صبري في مصطفى كامل لتعلم أي طبقة من الشعراء ، تلك التي ظهرت مع البارودي ومهدت لشعر شوقي وحافظ ومطران ٠ وهذه ابيات من تلك المرثية :

اجل انا من ارضاك خلا موافيا

ويرضيك في الباكين لو كنت واعيا

وقلبي ذاك المورد العذب لم يزل

كما ذقت منه الحب والود صافيا

سوى انه يعتاده الحزن كلما

رآك عن الحوض المهدد نائيا

أو كوصفه في لقاء الحبيب :

ولما التقينا قرب الشوق جهده

شجيين فاضا لوعة وعتابا

كأن حبيبا في خلال حبيبه

تسرب اثناء العناق وغابا

أو كقوله في ايجازه المبدع الذي يرتفع الى مصاف الحكمة :

اذا خانني خل قـديم وعقني
وفوقت يوما في مقاتلـه سهمي
تعرض طيـف الود بيني وبينـه
فكسرت سـهمي وانثنيت ولم أرم

وحينما نجد جوانب الجد في ادب هؤلاء الشعراء والادباء نرى جانبا آخر من روح الدعابة والفكاهة والنكتة والسخرية اللاذعة .

فهذا حفني ناصف الاديب الباحث المحقق في اللغة يعطي لوحة عصره اشراقات آخر من شعره العذب كقوله حينما نقل الى الوجـه القبلي وهي من المناطق المعروفة بجوها الحار :

ألقى الهواء فـلا اهـا	ب لقـاه ظهرا وبطنـا
وأنـام غير مدثـر	شيئا اذا ما الليل جنـا
قد خفت النفقـات اذ	لا اشترى صوفـا وقطنـا
وفرت من ثمـن الوقو	د النصف نصفـا وثمنـا
فالشمس تكفل راحتي	فكأنها أمي واختـي
فاذا بدت لي حاجـة	في الغسل ألقى الماء سخنا
اورمت طبخـا او عـلا	ج الخبـز ألقى الجو فرنا

او كقولـه :

اتقضى معي ان حان حيني تجـاربي
وما نلتهـا الا بطـول عنـاء
ويحزننـي الا أرى لي حيلـة
لاعطائهـا من يسـتحق عطـائي
اذا ورث المثـرون ابنـاءهم غنى
وجاها فما اشقى بني الحكمـاء

حينما برز شوقي وحافظ ابراهيم ، وخليل مطران ، كان الجو السياسي والاجتماعي يمر بشبه مخاض قوي يهدد بانفجار شعبي شامل ، فقد كان الشعب العربي في مصر يتحسس آلامه ومصائبه ، ويتعرف على مواطن الداء ويفتش عمن يقوم بدور التوعية ، اذ كان لفشل ثورة ١٩١٩ ابعد أثر في تخلي بعض رجال الفكر والادب عن دورهم في القيادة الا ان بعض الاحداث المهمة ، كحادثة دنشواي التي هزت الضمير العربي والانساني ، استطاعت ان تلهب مشاعر الشعراء والادباء وتدفع بهم الى التصوير الواقعي لحقيقة الشعب . وقد وصف الكاتبان محمود امين العالم وعبدالعظيم انيس هذه المرحلة من مراحل الشعر العربي في مصر ، وصفا دقيقا حينما قالا في مؤلفهما (في الثقافة المصرية) « وخلال هذه المرحلة الطويلة: منذ مفتتح القرن العشرين حتى اعتبار معاهدة ١٩٣٦ (غير ذات موضوع) تحقق للشعر المصري الحديث ثلاثة تيارات اصيلة لكل منها اسلوبها الخاص ومضمونه المعين . »

لقد قام ممثلو التيار الاول بصياغة مشاعر القومية المصرية ، وساهموا في حمل لواء القضايا الكبرى والدفاع عنها وبلورتها .. ولكن في حدود فلسفة طبقة خاصة من « سراة البلاد واعيانها » .. كان شوقي وحافظ ومحرم ونسيم ومطران المنابر الداعية لتلك السلطة الثالثة بين السلطتين - اي سلطة الاستعمار وسلطة الخديوي - .

لو اخذنا شعر الرعيل الثاني في العصر الحديث ، شعر شوقي وحافظ ومطران ، لوجدنا ان هؤلاء الشعراء لا يقفون على قمة الشعر العربي في مصر وحسب بل الشعر العربي المعاصر بشكل عام .

فأن أحمد شوقي العظيم ، استطاع بما اوتي من قابلية شعرية متدفقة عارمة وابداع فني رفيع الجرس قوي المعنى ، ان يطرق مختلف ابواب الشعر بلا تهيب ، ويفتح فيها فتحا رائعا لم يسبقه اليه شاعر في عصره . اجاد في الوصف والغزل والمديح والرثاء والقصة والتاريخ والوطنية ، وكان في المسرحية الشعرية فارس الميدان الذي لا يشق له غبار . فقد كتب مسرحيات شعرية تعد في طليعة الاعمال

الشعرية فى عصرنا الحديث ، كمصرع كليوباترة وقمبيز ومجنون ليلى وعنترة واميرة الاندلس . وهذه المسرحيات تعطيك فكرة جلية عن تعلق شوقى بالتاريخ العربى وهيامه فى آدابه . وقصيدته بعد المنفى ، تصور ذلك الجانب التاريخى البارز فى شعره :

انادى الرسم لو ملك الجوابا
واجزيـــه بدمعى لو اثابـا
وداعـا ارض اندلس وهذا
ثنائى ان رضيت به ثوابا
ومـــا اثنيت الا بعد علـم
وكم من جاهـل اثنى فعــابا
تخذتك موئـــلا فحللت اندى
ذرا من وائل واعز غابـا

أو كقوله وهو يبث روح العمل والكفاح فى ابناء الشرق :

ممالك الشـــرق أم ادراس اطـــلال
وتلك دولاتـــه ام رسمها البـــالى ؟
أصابهـــا الـــدهر الا فى مآثرهـــا
والـــدهر بالناس من حال الى حـــال
اذا جفـــا الحق أرضا هان جانبهـــا
كانهـــا غابة من غـــير رئبـــال
وان تحكم فيهـــا جهل اسلمها
لفـــاتك من عوادى الذل قتـــال
نوابـــغ الشرق هزوه لعـــل به
من الليالى جمود اليائس الســـالى

ان تنفخوا فيه من روح البيـــان ومن
حقيقة العـلم ينهض بعد اعضــــال

× × ×

كم همـــة رفعت جيلا ذرى شـــرف
ونومـــة هدمت بنيـان اجيال

ان يكن ايمان شوقى بالتاريخ العربىوحضارة بنى الضاد ينصرف الى مواقع بارزة فى اعماله الادبية ٠ فان ايمانه بوحدة أمة العـــرب تتضح جلية فى تلك الاعمال ٠

نصحت ونحن مختلفون دارا ولكن كلنا فى الهم شـــرق
ويجمعنا اذا اختلفت بـلاد بيـان غير مختلـف ونطـــق

وفى نفس المعنى يقول :

قد قضى ان يؤلفنـــا الجر ح وان نلتقى على اشجانـــه
كلما أن بالعراق جريـــح لمس الشـرق جنبه فى عمـانه
وعلينا كما عليكـــم حديـد تتنزى الليـوث فى قضبانـه
نحن فى الفكر بالديـار سواء كلنا مشفق على اوطـــانه

ان شعر شوقى من الضخامة فى الكم والكيف ما لا تحصره امثلة أو شواهد ، وانما أتينا بتلك الابيات للتدليل على بعض النواحى البارزة من خلال تجربة الطبقة التى عاشت عصر شوقى وامجاده ٠

أما شـعر حافظ ابراهيم وهو من طبقـــة شوقى ومن معاصريه فانه يتميز كذلك بالجزالة ورقة السبك والاخيلـة واللمسـات الوطنية الشعبية الاصيلة والمعانى الجديدة كقوله فى هذه القطعـــة الغزلية الرقيقة ٠

كتمت فقالوا شاعر ينكر الهوى
وهل غير صدرى بالغرام خبير
ولو شئت اذهلت النجوم عن السرى
وعطلت افلاكا بهن تدور
واشعلت جلد الليل منى بزفرة
غرامية فيها الشرار يطير
ولكننى اخفيت ما بى وانما
لكل غرام عاذل وعذير
ارى الحب ذلا والشكاية ذلة
وانى بستر الذلتين جدير
ولي فى الهوى شعران شعر اذيعه
وآخر فى طي الفؤاد ستير

أو كقوله فى عبقرية فيكتور هوجو

اعجمى كاد يعلو نجمه
فى سماء الشعر نجم العربى
صافح العلياء فيها والتقى
بالمعري فوق هام الشهب
عاف فى منفاه ان يدنو به
عفو ذاك العاهل المغتصب

بشـروه بالتداني ونسـوا

انـه ذاك العصـامي الابي

كتـب المنفي سطر للـلـاى

جاده بالعفـو فاقرأ واعجـب

ابريء عنـه يعفـو مـذنب

كيف تسرى العفو كف المـذنب

جاء والاحـلام في احفادهـا

ما لهـا في سجنهـا من مذهب

جاءهـا هو غو بشاو دونـه

عزة التـاج وزهـو المركب

أو كقوله مؤمنا بأمته العربية وتاريخها العريق :

واهـا على دولة بالامس قد ملأت

جـوانب الشرق رغدا من اياديهـا

والله ما غالها قدما وكاد لهـا

واجتث دوحتهـا الا مواليهـا

لو انهـا في صميم العـرب قـد بقيت

لمـا نعاها على الايام ناعيهـا

ومن أهم مميزات شعر حافظ ابراهيم ، الحزن والالـم والحسرة ولعل مرد ذلك الحياة التي عاشها مكافحا عن امته ، ومكافحا من اجل العيش الكريم ايضا . انظر كيف يصف حاله في الستين :

ولى الشباب وجازتني فتوتـه وهدم السقم بعد السقم اركاني

وقد وقفت على الستين اسالهـا أسوفت ام اعدت حر اكفـاني

انى مللت وقوفى كل آونـــة أبكي وانظم احزانـــا باحزانى
اذا تصفحت ديوانى لتقرأنـــي وجدت شعر المراثى نصفديوانى

اما مطران فيختلف عن شوقي وحافظ بالنفس الطـويل فى الشعر والتصوير الواسع الخلاب والاوصاف الجديدة والتماس حاسة الوجدان فى كل ما كتب من شـعر : لهذا جاء شعره صورة لطبيعته . وقد وصف بعض ذلك فى مقدمة ديوانه بقوله « هذا شعر ليس ناظمه بعبده ، ولا تحمله ضرورات الوزن او القافية على غير قصده . يقال المعنى الصحيح فيه باللفظ الفصيح ولا ينظر قائله الى جمال البيت المفرد ... بل ينظر الى جمال البيت فى ذاته وفى موضعه والى جملة القصيدة فى تركيبها وفى ترتيبها وفى تناسق معانيها وتوافقها ». وفى مقاله (التجديد فى الشعر) المنشور فى مجلة الهلال عام ١٩٣٣ يقول موضحا ذلك

« ان التجديد كائنا ما كان لا يحيط المدى الواسع الذى يتشعب اليه التجديد ، بل هناك مجال للعقل المبتكر والفكر المولد والتصور البارع يستطيع الاديب أو المتأدب ان يجيل بصره فى لبـابه أو فى أطرافه متى قارن عن تدبر وروية بين ما كان عليه البيان فى ازمنته الاولى وما صار اليه بعدها فى حقبة من حقبه . فهو بمثل هذه المقارنة سواء أكانت فى مخلفات العرب ام فى مخلفـات الغربيـين يتبين من الوجوه والسبل ما لا تبينه له التعاريف الموجـزة او المفصلة . وفى الانحـاء المتعددة من ذلك المجـال وفى أشواطه التـى يظهـر من اختلافها الاختلاف فى التقدير والتعبير بين ردح وآخر من الدهر ـ يجد العون الذى تستعين به قريحتك على اختيار مذهب تنطلق فيـه خالصة من الزحام مرموقة الاثر بين آلاف من القرائح التى جرت الى مثل غايتها .... » .

ولرب مقاطع من قصيدته الاسد الباكى تعبر عما وصف به ذلك التجديد

دعوتـــك استشفى اليك فوافنـى
على غير علم منك انك لـــي آسى

فان ترني والحـزن ملء جوانحي
اداريـه فلا يغررك بشري وايناسي
وكم في فؤادي من جراح ثخينـــة
يحجبهـا بردای عن اعين النـاس
الى «عين شمس» قد لجأت وحاجتي
طـلاقة جو لم يدنس بأرجاس
أسرى همومي بانفرادي آمنـــا
مكايد واش ، او نمائم دســـاس
يخالون انی فی متــاع حيالهـا
وای متاع فی جـوار لديمـــاس
ارى روضة لكنها روضة الردى
واصغي ومافي مسمعي غيروسواس
وانظر من حـولي مشاة وركبـــا
على مزجيات من دخـــان وافراس
كأني فی رؤيا يزف الاسی بهـــا
طوائف جن فی مـواكب اعراس

الى ان يقول :

انـــا الالم الساجي لبعد مزافري
انا الامل الداجي ولم يخب نبراسي
انا الاسد الباكي ، انا جبل الاسـى
انا الرمس يمشي داميا فوق ارماسي

وليس الاسد الباكى الا النموذج الحى لكثير من قصائده التصويرية ذات الايحاءات والاشارات غير المباشرة ، كقصيدته (غضبة للتمثال) او «شيخ اثينا» او «رثاء مى» : ولربما كانت ملحمته الرائعة (حريق روما) واحدة من افخم اعماله الشعرية حيث تمتزج فيها المشـاعر ودقة الملاحظة وعظمة التصوير الفنى كقوله :

فاز «نيرون» باقصى ما اشـــتهى
محرقا «روما» ليســتبدع فكــرا
بعـد ان حصــل فى تمثيلـــه
ما به اصبح فى التمثيل شـهرا
شبت النـــار بها ليــلا ، وقد
رقـــدت امتهـــا وسنى وسكرى
شـعلة من كـل صوب نهضــت
ومشــت رفـا ، واحضارا وعبرا
زحفت رابيـــــة مضرمـــة
تلتقيها فى عناق الوهج اخـــرى
جمعـت أقسام « روما » كلهـــا
فى جحيم تصهر الاجسـام صهرا
فالمبـاني تتهاوى ، والجـــذى
تترامى ، والدمى تنفض جمـــرا
والاناســـى حيارى ذهــل
غامروا هــولا ، وساء الهول غمرا
خوض فى الوقــد الا نفــر
تخذوا الاشلاء فـوق الوقد جسـرا

والفوارى انطلقت لا تأتلى
ما التقت ، عضا ، وتمزيقا ، وكسرا
هجمت للفتك ، ثم انهزمت
خزعات ، ساريات كل مسرى
كثر اللحم شواء حولها
وتأبت بعد جهد الصوم فطرا
تتهادى مهراقا دمها
وبها ضعضعة النازف خمرا
دفق « التبر » ضياء ودما
مستفيض اللج ياقوتا وتبرا

ولا يفوتنا فى هذا المجال الاشادة بفضل مطران على المسرح العربى حيث قدم محاولات رائدة فى ترجمة روائع المسرح العالمى الى اللغة العربية كعطيل وهاملت وماكبث ، (شكسبير) وبيرنيس (راسين) وهرنانى (فكتور هوجو) .. وغيرها من الاعمال المسرحية البارزة .

ومن بين صفوف هؤلاء الشعراء الثلاثة الرواد ، انطلق العقاد شاعرا غنائيا ينحو منحى النزعة الفردية التى ترى العالم من خلال الذات فى شعره يتحكم العقل والصنعة والصياغة وحول هذاالموضوع يوضح كل من الدكتور عبدالحميد يونس وصلاح عبدالصبور موقفهما من شعر العقاد فى مقاليهما المنشورين فى العدد الخاص من الهلال عن العقاد عام ١٩٦٧ فيقول الدكتور يونس : « ... وان كل من يدرس شعر العقاد يلاحظ هذه الحقائق بوضوح ... فقد رغب عن شعر المناسبات الا فى القليل النادر وجعل شخصيته هى المحور وموقفه النفسى هو الحافز . واندفع بعض خصومه يأخذون عليه عليه تأثره بالشعر الغنائى الانجليزى بخاصة . ووازنوا بين بعض

مقطوعاته وبين ما اشتملت عليه مجموعة « الذخيرة الذهبيـــه » من الاغانى والقصائد والمقطوعات ٠

٠٠٠٠ ان الاديب العملاق بدأ متفلسفا نزاعا الى التامل والتفكير وانتهى شاديا بالغناء العاطفى ٠ بدأ شيخا وانتهى التصابى عنده بما يشبه المراهقة ، وظل شاعرا مع ذلك فى الحالين ٠ معبرا بالشعر عن حوافز نفسه ، مدركا لما له من قيود تفرضها ضرورات الايقـــاع والنظم ٠٠٠»

اما صلاح عبدالصبور فيرى ان « ٠٠٠ العقاد شاعر مرحلة الانتقال، ففى شعره الى جانب التأملات واناشيد الغرام ووصف الطبيعة مانجده فى دواوين الشعراء فى النصف الاول من القرن العشرين جميعا من تسجيل للاحداث يصل فى بعض الاحيان الى هاوية شعر المناسبات ٠ ولسنا هنا بصدد الادانة الاخلاقية ، اما الادانة الشعرية فلانستطيعها لان العقاد ــ رغم تميزه ــ ليس الا حلقة من سلسلة شعراء العرب الكبار ، يرث عنهم عيوبهم بحكم قانون سيطرة الموروث الادبى حتى ولو حاول الشاعر الفكاك منه ٠

ومن الحق ان العقاد قد حاول ما امكنه ، ونجح الى حد كبير ،ان يتخلص من سيطرة هذا الموروث ، بل لقد هاجمه وندد به نثرا ونقـدا هجوما عنيفا ، ودعا فى اكثر من مناسبة الى ان يكون الشعر هــو صوت الشاعر الخاص ، بل ان دعوته تلك كان لها أكبـــر الاثر فى الشعراء من بعده ، بحيث كانت من أهم المعاول التى اجتثت شـــعر المناسبات من التراث المرموق للشعر العربى المعاصر ٠ ولكن يظهر ان ظروف الحياة كانت اقوى منه ، هذه الظروف التى تدعو الى التهاون الذى ما يلبث الانسان ان يبحث له عن تبرير انقاذا لكرامة نفســـه أمام نفسه :

واليك الآن نماذج من شعره ، كتدليل على نزوعه الى الفلسـفة والحكمة والطبيعة كقوله فى حكمه التالية :

كم آيـــة فى الكـــون	اخفى من خفيات الضمير
من لا يرى الا العيـــا	ن فلا يرى الا اليسير

أو كقوله :

دعونى أسر فى ساحة العيش مفردا
معمى فلا ادرى مصيرى واولى
ولا تغولونى ان يئست ، فاننى
أرى اليأس اعلى من رجاء المذلل
ارونى رجاء فوق يأسى ، فانبرى
اليه ، وعدوا عن رجاء التسفل
اذا لم يكن للنجح فضل لناجح
على مخفق ، فالنجح بغية اخطل

أو كقوله :

هما سبيلان من يبغ السلامة لا
يأسف على الحق أو يحلم برؤياه
ومن بغى الحق فى الدنيا فلا أسف
على السلامة ان خانته دنياه
قد يهجر الامن من ذلوا ومن وهنوا
وما تفرق قط الهول والجاه

وفى وصف الطبيعة يقول :

ضحك الطبيعة فى الربيع كأنه
ضحك الغريرة فى عناق خليع
فاذا تبسم فى الخريف جبينها
أبصرت نظرة ريبة وخشوع
كالغادة الحسناء يغرب وجهها
اثناء شيب فى الشباب سريع

ويقف مع العقاد شعراء بارزون آخرون مثل على الجارم حيث المسحة العربية البدوية والجزالة والفخامة تطغى على شعره ، وعبدالرحمن شكرى الذى قال العقاد عن شعره انه (ينبسط انبساط البحر فى عمق وسعة وسكون) ، وعزيز اباظــة حيث من مسرحياته الشـعرية ومن قصائده تنساب الرقة والدقة فى اختيار الالفاظ والمعانى الحديثة، وزكى مبارك ، حيث فى ملامح شعره التصوف والغزل الرقيق المستملح وحيث لا تكلف ولا مبالغة ولا تهويل كقوله :

اتمضى ليـالى الصيف لا تنفع الجوى
مباسـم بالعذب النمير تجـود ؟
ويدرج فى مغداه اسـوان صـاديا
فؤاد باثقـال الشجون يميـد ؟
وتخلـو مغانى النيل من لهوفاتـك
له من رباهـا جنـة وخلـود ؟
ويحيا أسير الحزن فى ميعـة الصبا
فتى مرح طاغى الشـباب مريد ؟

ولابد هنا من الوقوف عند شاعرية ابى شادى باعتبارها مرحلـة تطورية فى الشعر العربى فى مصر ، وباعتبارها المفتاح الذى اسـقط المغاليق العتيقة لتدخل ـ فى رحاب الشعر ـ مدرسة ابوللو ، تلـك المدرسة التى اتحفت الشعر العربى بمعطيات جديدة ، ومنحته دما غنيا بالطاقات النامية المبدعة :

يقول محمود امين العالم وعبدالعظيم انيس فى كتابهما مـار الذكر عن هذا الشاعر الفنان « والى .... المدرسة التى وضـع بذورها مطران وشكرى والمازنى والعقاد .. ينتسب « احمد زكـى ابو شادى من دعاة التجربة الذاتية ، ومن المبدعين فيهـا . وهـو الى

ايمانه بهذه التجارب الشخصية مؤمن بالعقل الانساني ، حريص على الدفاع عن القيم الانسانية الكبيرة ، مشارك في البناء القومي مشاركة اصيلة واعية .. لقد نضج هذا الشاعر الكبير وانضج حوله جماعة شعريه مستحدثة هي جماعة (ابولو) » .

ان واحدا من ابرز شعراء هذه الجماعة وهو الشاعر صالح جودت قد تحدث عن اثرها واثر بعض المدارس الادبية الاخرى في الادب العربي فقال :

« .. ان ابولو كانت جماعة تضم عدة مدارس شبانية يرتبط افرادها بصلة مودة القلم ، كانت فيها مدرسة شوقي الذي كان الرئيس الاول لجماعة ابولو : وكانت هناك مدرسة مطران ، ومدرسة المنصورة التي كان يمثلها ابراهيم ناجي وعلي محمود طه ومحمد عبدالمعطي الهمشري ومدرسة الفقهاء ، كعبدالمطلب ومحمود غنيم وعلي الجندي ومحمد الاسمر ، وكان هناك نفر من مدرسة العقاد ، كعبد الرحمن صدقي ومحمود عماد وطاهر الجيلاوي وكان فضل ابولو على الشعر انها اتاحت الفرصة للشعراء الشباب ان تتألق اسماؤهم الى جانب الشعراء الاعلام في مجلة واحدة : وانها استحدثت اسلوبا عمليا في النقد ، هذا الى جانب انها اتجهت الى الوان من الشعر لم تكن مطروقة من قبل حيث وجهت الشعراء الشباب الى الوان كثيرة كالشعر التمثيلي والشعر الاسطوري والشعر التصويري والشعر الملحمي » .

ومن الضروري الاشارة الى ان الشعر المصري الحديث ، في فترته المتأخرة ، لم يتأثر بمفاهيم مدرسة ابولو حسب ، بل ان اثر التجديد الذي حمل لواءه من العراق جميل صدقي الزهاوي في الوزن وتعدد القوافي والشعر الروائي والاجتماعي كان واضحا في ذلك الشعر كما ان للترجمة الشعرية وما حملته أنسام الشعر المهجري من الوان لم يسبق للشعر العربي ان عرفها بينة فيه . فانت لو قرأت هذه الابيات لعلي محمود طه الا تشعر بان روح نسيب عريضه او جبران او نعيمة تجوب انفاسها :

روحـــك فى روحى تبث الحيـــاة
نزلت دنيـــاى على فجرهـــــا
فـأن جفاها ذات يوم ســناه
لاذت بليل الموت فى قبرها

●

مـــا أثمــت روحـــى ولا اجرمت
ولا طغى جسمى ولا اســـتهترا
عنـــاصر الروح بما الهمـــت
اوحت الى الجسم فما قصـــرا

أو كقوله فى قصيدته حانة الشعراء :

هى حانـــــة شتى عجائبهـــا
معروشة بالزهـــر والقصب
فى ظلـــة باتت تداعبهـــا
انفـاس ليل مقمر السـحب
وزهت بمصباح جوانبهـــا
صـافى الزجاجة راقص اللهب
(باخوس) فيهـــا وهو صاحبهـا
لم يخل حين أطـــل من عجـب
قد ظنهـــا والسحر قالبهـــا
شيدت من الياقوت والـــذهب
ابريقـــه حلى من الدرر
يزهـــى به قدح من الماس

وكأن ما حوليه من صور
متحركات ذات انفاس
تركت مواضعها من الاطر
ومشت له في شبه اعراس
منهن عازفة على وتر
متفجر بارق احساس
وغريرة حوراء كالقمر
تحنو على شفتيه بالكاس

او اقرأ له هذه الابيات ايضا :

أأنا المقيم لديك ام شبحي لعبت برأسي نشوة الفرح
يا حانة الارواح ما صنعت بالروح فيك صبابة القدح
ما للسماء اديمها لهب الفجر ؟ ان الفجر لم يلح
ولم البحيرة مثلما سجرت او فجرت من عرق منذبح
لو لا ابتسامة جارتي وفم يدنو الي بصدر منشرح
لحسبتها «روما» تمور لظى في قهقهات الآثم المرح

او كقول ابراهيم ناجي :

ايها الصوت الذي بح اتئد نحن في القفر ضماء وجياع
ما لدينا الذي نعشقه غير ذا الحب وما منه انتفاع
وغناء الطير قد رف على زهرات ظامئات للسماع
ضاع شدو الطير في دنيا لها صوت اعراس ولهو ومتاع

أو كقوله :

رفرف القلب بجنبى كالذبيح | فيجيب الدمع والماضى الجريح
لم عدنا أو لم نطو الغرام | ورضينا بسكون وسلام
وانا اهتف يا قلب اتئد | لم عدنا ؟ ليت انا لم نعد
وفرغنا من حنين وألم | وانتهينا لفراغ كالعدم

وهذا محمود حسن اسماعيل من اقطاب تلك الموجة الجديدة وفرسانها المجددين يعطينا نماذج اخاذة من الرومانسية المطعمة بالوان من الواقع الحى ، ذلك الواقع الذى تمتزج به انفاس الريف وسحر الطبيعة بروح العصر :

ايه يا قريتى ، اصيخى لشاد | سكب اللحن فى رنين شجى
شاعر هزه هواك فغنى | لك انشودة الجمال البهى
مد اوتاره اشعة بدر | غارقات فى صمتك السرمدى
ساحرات النهى برعشة اطيا | ف تراقصن فى الفضاء الوضي

أو كقوله :

اتركونى وعزلتى يا بنى الطير
ن فانى على حماكم غريب
انا فى صمتها صلاة .. فخفوا
فاهجروا ارضها فانتم ذنوب

أو كقوله فى هذا المقطع الغنائى الباكى :

القيتنى بين شباك العذاب | وقلت لى غن
وكل ما يشجى حنين الرباب | ضيعته منى

هذا جناحي صارخ لايجاب — في ظلمة السجن
ونشوتي صارت بقايا سراب — في حانة الجن
اواه ٠٠ يافنـــي
لو لم اعش كالناس فوق التراب

او كقول احمد زكي ابي شادي في قصيدته «نشيد لم يتم» :

وما يضـاعف في عمري ويسـعفه
بكل حلم يغذي روح فنـان
دنيـا من الشعر نحيا في قصائدها
ومـا تحجب منهـا غير عنوان
حـازت روائعها الالوان ، وازدحمت
في كل شيء ، وجازت كل امكـان
من شاء متعتها لم يثنـه تعب
ومن تبرم عاش الآسف العـاني

ولم تنطو آثار هذه المدرسة الشعرية بهجرة احمد زكي ابي شادي او موت بعض شعرائها المبرزين كابراهيم ناجي وعلى محمود طه المهندس ومحمـد ابي الوفا ٠٠ بل امتدت جذورهـا اعمـق لتمس منبت شعراء كثر التزموا ذات الاغراض الشعرية المحددة التي لم تخرج عن اغراض المدح والغزل واستقراء التـاريخ والوصف ٠ الا ان شعراء آخرون ساروا بالـدرب ذاتـه فخرجو بأنمـاط جديدة في الشعر من حيث المعنى والمبنى ، وقدموا محاولات جـادة طرية في الوانهـا عبرت عن كثير من المطـامح والامال في الشعر من امثال محمود حسن اسماعيل ، وصالح جودت ومحمود عماد ،وعبد الرحمن صدقي ومحمد التهامي واحمد رامي وملك عبدالعزيز ،والعوضى الوكيل ، وعبده بدوى ، وروحية القليني ، وغيرهم من شعراء هـذه الطبقـة ٠

ففي شعر صالح جودت تجد نماذج فنية تكاد تحسبها لاول وهلة عباسية المنطلق اموية الاخيلة لو لا تزاوج موفق بين نغمات الماضى المفتخر به ، وايقاع الحاضر الذى يذكرنا بصدى مطارق الواقع ٠

خذ مثلا قصيدته « فى المستشفى » فالجرس من انغام الماضى والترديد ينبيك عن مقدرة الشاعر الانية وحسه العصرى :

ليرحم الله آمالى واهوائى
انى قنعت بهذا المخدع النائى
بقية العمر ايام تدب على
صدر تهدم الا بعض اشلاء
اعيشها ناسكا فى ركن صومعة
قامت على صخرة كالموت صماء
يبدو خيال امانى فاطرده
حتى كأن الامانى بعض اعدائى
اواه من عزلة كالسجن مغلقة
على جراح وآلام وارزاء
ما هذه الجثث الملقاة فى سرر
انصاف موتى على انصاف احياء
صفر الوجوه كأن السقم عفرهم
بحفنة من تراب القبر صفراء
أ (الآه) فيهم تراتيل منغمة
تنساب فى قصبات نصف خرساء
وما لهم من نهار فيه مرحمة
ولا لهم ليلة ليست بليلاء

أو خذ هذه الابيات للشاعر الفنان عبدالرحمن صدقى فستجد فيها تصويرا واخيلة جديدة :

وما الفنــون شحاح فى تهللها
ولا عرائسـها خفـارة الذمم
حفاوة بالخبــير الرأى فى صور
وفى تماثيل كالاحياء من رضـم
نواطق اللحظ والايماء تحسـبها
لفرط تعبيرهـا موفورة النسم
حقائـق ، من صميم الحق شاهدة
تصافح العين والالبــاب كالحلم
مرموزة لمعـــان جد خافيــة
لو لا معالجة الفنـان لم تسـم

لقد اكتسحت الثورة العربية فى مصر عام ١٩٥٢ المفاهيم القديمة والافكار البالية ووضعت الفن والادب فى خدمة المجتمع واطلقت للفكر العربى فى مصر ان يجول جولات موفقة فى العالم الانسانى يستوحى مشاكل المجتمع بذات القدرة التى يدافع فيها عن معضـلاته ، فكان نصيب الشعراء وافرا فى هذا المجال فقد ظهر شعراء شباب استطاعوا ان يكونوا فى طليعة شعراء العربية فى زمن قصير ،وتمكن شعراء آخرون ان يطوروا شعرهم مع المفاهيم الجديدة التى تتعدى حتى النطاق العربى ٠

ان موجة الشعر الحر التى بدأها شعراء العراق من أمثـال نازك الملائكة وبدر شاكر السياب وعبدالوهاب البياتى وبلند الحيدرى لعبت دورا مهما فى فتح افاق جديدة امام الشعر فى مصر لكى ينطلق فى تلك الاجواء ، نابضا بالحياة ، معبرا عن المرحلة متاثرا بالمشاكل الانسانية ، مدافعا عن قيم الحضارة ومفهوم الكرامة والاستقلال ٠ فى هذه الفترة والاخيرة منها بالذات(١٩٥٢ـ١٩٦٦)ظهر عبدالمعطى حجازى

وصلاح عبدالصبور ونجيب سرور وكمال نشات وكمال عبدالحليم وصلاح جاهين ومحمد فوزى العنتيل واحمد كمال زكى وعبدالرحمن الشرقاوى وغيرهم فغيروا فى مقاييس الشعر واوزانه تغييرا جذريا كما انهم ابتكروا فى المعنى واتخذوا لهم اساليب جديدة ، فهى رقيقة منسابة تارة ، وهى مزمجرة عاصفة تارة اخرى ، لكل مقام مقال ، ولكل موضوع مبنى .

بل حتى الشعر العمودى ، فحينما تلمسه انامل هؤلاء الشعراء الشباب تمسه بأسلوب حديث ، انظر مثلا كيف يصور صلاح عبد الصبور (رحلة المعنى) حينما يقول :

الصبح يدرج فى طفولته — والليل يحبو حبو منهزم
والبدر لملم فوق قريتنا — استار اوبته ، ولم انم
جام وابريق وصومعة — وسماء صيف ثرة النعم
قد كرمت انفاسها رئتى — وتقطرت انداؤها بفمى
وبغيمة تغفو بنافذتى — لحظت شرودى لحظ مبتسم
وصدى لموال يعاودنى — وحفيف موسيقى من السدم
ورؤى اصيرها واقطفها — والمها ويذرها سأمى
وعرائس تختال فى حلمى — بين الدفوف وضجة النغم
واظل مأخوذا فتبسم لي — تيجانها ويهزنى ضرمى
وترودها كفى فيفجعنى — حس الدمى وبرودة الصنم
يا رحلة المعنى على خلدى — فرى بجذبى عانقى عدمى

بل انظر كيف يقلب كمال نشأت الواقع الذى يحس الى رمزية تهمس ولا تصرخ :

يا ليتنى موجة من موجك الهدار
افنى مع اللجة سرا من الاسرار

●

روح تهيم شريدة فوق البطاح
حيرى الجناح
موهونة ولهى محشرجة النواح
عند الصباح
مرت على المغنى الكئيب
فى صمته ، الضافى الرهيب
سألت٠٠٠ولكن من يجيب
الا الطلال الباكيات
ورماد هذى الذكريات
عادت الى الوكر القديم ولا تزال
تلقى السؤال
اين الحبيب فلاتجيب سوى الطلال
اضحى خيال ٠

●

وهذا الشاعر صلاح عبدالصبور يصور البطولة الفريدة فى دنشواى من خلال موقف الفتى زهران من اعداء الحياة فيقول فى قصيدته (شنق زهران) :

وثوى فى جبهة الارض الضياء
ومشى الحزن الى الاكواخ ٠٠ تنين له الف ذراع

كل دهليز ذراع

من اذان الظهر حتى الليل ٠٠٠ يا لله

فى نصف نهار

كل هذى المحن الصماء فى نصف نهار

مذ تدلى راس زهران الوديع

●

كان زهران غلاما

امه سمراء ٠٠٠والاب مولد

وبعينيـــه وسامة

وعلى الصدغ حمامــة

وعلى الزند ابو زيد سلامة

ممسكا سيفا ، وتحت الوشم نبش كالكتابـة

اسم قريـــة

« دنشـــواى »

●

ثم يقول الشاعر :

مر زهران بظهر السوق يوما

وراى النار التى تحرق حقـــلا

وراى النار التى تصرع طفلا

كان زهران صديقا للحياة

وراى النيران تجتاح الحياة

مد زهران الى الانجم كفـا
ودعا يســـأل لطفا
ربما سورة حقد فى الدماء
ربما استعدى على النار السماء

●

وضع النطع على السكة والغيلان جاؤوا
واتى السياف (مسرور) واعداء الحياة
صنعوا الموت لاحباب الحياة
وتدلى رأس زهران الوديع
قريتى من يومها لم تأتدم الا الدموع
قريتى من يومها تأوى الى الركن الصديع
قريتى من يومها تخشى الحياة
كان زهران صديقا للحياة
مات زهران وعيناه حياة
فلماذا قريتى تخشى الحياة ؟!

ثم انظر كيف يصور الشاعر فوزى العنيتل روح العصر فى تمرده على القيم البالية ودعوته الى فجر جـديد يعيـد للانســـان حقه فى العيش الكريم :

ومضيت اعصـر من سنينى قطـرة
بيضـاء فى افق الحيـاة الغـائم
فى الريـف بين الكـادحين يسوقهم
قـدر وراء الكون فـوق العالم

وخطى تمر على بقايا قصة

من دمع محروم وقسوة حارم

وعلى جدار الكوخ ترقد ظلمة

ممسوخة كظلائه المتشائم

وجلست بين المبتغين ورفرفت

روح المساء على الجدار القاتم

فى ليلة ظماى تحن نجومها

للفجر . . . للشفق الغريق العائم

●

الى ان يقول :

وانفض سامر ليلة شرقية

فى الريف بين مواكب البسطاء

ومضيت اعصر من سنينى قطرة

بيضاء فى الافق البعيد النائى

واسوق ايامى قطيعا شاردا

يعدو وراء قوافل الغرباء

وهذا شاعر آخر من الشعراء المحدثين هو نجيب سرور يصور الضياع والقلق والمتاهة التى يعيشها انسان العصر فى اجزاء كثيرة من العالم :

انى اموت

يا اخوتى . . . انى اموت

كالشمعة الخرساء اعصاب رقاق تنعصر

كالورد فى الابريق ... انفاس ولكن تحتضر
كالحقل مخضرا ... يدب الجدب فى بطء اليه
كالنيل تمتص الرمال حياته من جانبيه
كالسنديانة ان تكن ملء العيـــون
فالنمل ينخر قلبها ... يا اخوتى هل تسمعون
انى اعيش الموت فى صمتى ... اموت
انى امـوت

ثم يقول منتفضا على هذه النظرة التشاؤمية :

يا قصة الموت الذى يلد الحيـاة
انى ارى فى داخـل الموت الحياة

على ان كثيرا من الشعراء اجتاحتهم الثورة فلم يسمع لهم صوت لا فى مصر ولا فى خارجها ، اما الشعراء الذين طوروا شعرهم مع مقتضيات المرحلة ، فقد تمكنوا من ان يجعلوا من شعرهم نتاجا جديدا يستحق التقدير والاعجاب كصالح جودت واحمد رامى وكامل الشناوى والعوضى الوكيل وعبدالرحمن صدقى ومحمود حسن اسماعيل ومحمد التهامى بالاضافة الى الشعراء الشباب الذين مر ذكرهم من قبل .

فهذا الشاعر محمد التهامى مثلا يتصدى لموضوع من اهم مواضيع حياتنا المعاصرة الا وهو الكفاح الموحد من اجل خلق غد مشرق بسام للامة العربية كلها فيقول :

ان القـــوى هو اتحـــاد كياننـــا
فانـا وانت صنعته وصنعتـــه
من نـــور احلامى ، وطول تطلعـــى
وحصـــاد ايامى الطوال جمعتـــه

من كل ساعة شدة قضيتها
من كل ومضة مخرج الهمته
من قبضة السجان ، من جبروته
من قسوة الطغيان قد اخرجته
من خير اوطاني يسيل لغيرها
واها الجفاف عصرته وشربته

●

قل للئام العاملين لفرقة
لا ، لن يعود الي ما خلفته
فلقد عرفت وذقت حلو توحدى
يكفيهم الزمن الذى اهدرته

وهذه الشاعرة روحية القلينى تقول مثيرة النخوة ومعيدة للذاكرة امجاد العروبة ·

دعوت ربى فى جنح الظلام وكم
لجأت لله فى ضيقى فيهدينى
اقول يا رب انا امة خلقت
للمجد والعز لا للذل والهون
وللبناء خلقنا كيف يهدمنا
عاد علينا بلا رفق ولا لين
فى الشام فى مصر فى بغداد فى يمن
هدى العروبة فى روحى وتكوينى

يد الدخيـــل ارادت ان تفرقنـا
لكـــن وحدتنا شيدت بتمكـين

●

اعود بالشوق للارض التى صبرت
على الفراق الذى قد كان يشقينى
أحكى لهـــا قصة العدوان سافرة
فتمسح الدمع فى رفق تواسينى
تقـول لا تحزنى فالنصـــر رائدنا
مادامت القى جنود النصر تفدينى
نحن الاباة وان طـال الزمان بنا
سنحطم القيـــد فى عزم وتمكين

وهذ االشاعر الغنائى المعروف احمد رامى يقول فى قصيـــدته (الى بغداد) :

فى هوى (بابل) وحب (النواسى)
جئت اســرى على هدى احســـاسى
امـــلا العين من مباهج بغـدا
د واســعى الى حمـــى العبـــاس
وارى دجلـة الـذى فاض بالخــــير
عليهـــا وماج بالايـنـــــــاس
ورفاقـــا الى فـــؤادى احبـــاء
عـــلى العـــين ودهـــم والراس

الى أن يقول :

ايه بغـــداد والليالى كتاب ... ضم افراحنـــا وضم المآسى

عبث الدهر فى بساتينك الغنا ... ء والدهر حين يعبث قاســ

ودهـاك المغول بالطلعة النكرا ... ء يبغون قطـف ذاك الغراس

فتصديت للغزاة وجابهـــ ... ت اذاهم مثل الجبال الرواسى

ثم نافحت عن حمى الحق والشر ... ق واصبحت شعلة النبراس

يقبس القابسـون منك سنا العـ ... ـلم فتعطيهم بلا مقيــاس

وتديرين فى الوجود منارا ... ثابت الركن مستقر الاواسى

وهذا الشاعر الناقد العوضى الوكيل يضفى على شعره لمسات ذات روح عصرية فيها الرقة والجمال : حينما يقول فى قصيدته « معـــاد الربيع » :

عد يا صاحبى الربيـــع ! وعدنا

فامض فى الكون كيف شئت وانى

قد نقلنـــا عنك القصائـــد زهرا

فارو هـــذى القصائد الزهر عنـا

وقبسـنا ما شـاقنا من مرائيــ

ـك ، وهل ثم منظـر لم يشـــقنا

قـــد شملت الحياة ركنـــا فركنا

وغمرت القصيـــد وزنا فوزنـــا

لك مسرى اخفى من الروح فى الجـ

ـسم ، تهادى فى خاطرى واطمأنـــا

قد سلكت الحياة فى سبب منـ
ك ، فزدت الحياة سحرا وفنـــا
انت فى الغصن حينمـــا يتثنى
انت فى الطـــير حينمـــا يتغنى
رب لحن سرى الى النفس روضـا
ورياض سرين فى النفســـ لحنا
ضم عـــود الربيـــع بلبله الأكـ
وان طرا نصرن فى النفس كونـا

وأخيرا اليك هذه القصيدة وهى من احدث اشعار الشاعر المجدد احمد عبدالمعطى الحجازى وفيها يتحدث عن خواطر عربي في الارض المحتلة .

ولما تسلل في الليل من اخبروني
بانهمو فى انتظارى
وانهمو شوهدوا حول دارى
وقعت سجينا . وهانذا هارب ومطارد
اهيم بلا وجهة ، اتخبط فى العربات ، المحلات
مفترق الطرقات ، الحوارى
اعد دفاعى
أوخر هذا البلاء لساعه
احدق فى كل شىء اراه ، كانى ابث اليه اعتذارى
كانى احاول نقل المدينة فى مقلتى لسجنى
ولكن بلا طائل ، فانا هارب والمدينة تهرب منى
واشعر أنى فقدت قناعى
ملامح وجهى
وانى احس ببعض الدوار

وأن على التحلى ببعض الشجاعة

الى ان يقول بعد تخيله انه قدم الى المحاكمة : -

مضيت ليلة الرعب مبطئة ٠٠ ساعة اثر ساعة

واقبل من اخبرونى

بان الذى سمعوه ٠٠٠٠ اشاعة !!

ان ابرز معالم الادب فى مصر ، بعد فترة التمهيد التى حمل لواءها كتاب النثر كعبدالله نديم وقاسم امين ورفاعة الطهطاوى واحمد لطفى السيد وحفنى ناصف والشيخ على يوسف والشيخ ابراهيم اليازجى وعبدالعزيز جاويش والشيخ الافغانى والشيخ محمد عبده واديب اسحق وفتحى زغلول ، وغيرهم من صفوة كتاب مصر انذاك ، هو البناء الجزل ورنين الالفاظ فى المقالة : سواء السياسية منها ، ام الادبية المجردة التى تدور فى مدار الاوصاف التصويرية او النقد الذى كان يعتمد اعتمادا اساسيا على الذوق والحس من جهة وعلى قواعد النحو والبلاغة من جهة اخرى : معتبرا ان هذين المعيارين هما القاعدة الذهبية فى الموازنة لتقييم اى عمل ادبى ٠

لقد كانت المقالة فى الادب المصرى وفى ابان محاولة العديد من ادباء مصر المحدثين الانطلاق نحو افاق جديدة غير التى الفوها او درسوها ، تبدو عليها سيماء المهابة من ولوج واقع الحياة المصرية جديا ، او يبدو عليها الهزال وعدم المقدرة على مد تلك الحياة بعدم جديد يبعث فى نواحى الفكر نشاطا له ميزات التفهم المنطقى لواقع الادب ورسالته ٠ ولكى نعطى مقالة ذلك العهد اوصافها ٠ يمكننا القول ، بانها كانت رنانة اللغة متعالية الاسلوب ، فيها جعجعة فى الالفاظ وقلة فى المعانى ٠ وكان من ابرز مراميها اطراب القارىء ، وكانها صبت لتكون خطبة حماسية تزعزع الارض من تحت اقدام السامعين ٠

الا ان تغلغل مفاهيم الادب الحديث فى النقد عن طريق ما ورد من مصادر اوربية ذات قيمة علمية مترجمة الى اللغة العربية بأمانة ودقة ، دفع بكثير من الادباء الى ذلك اللون من المقالة ، يحللونه ويفككون اوصاله ويطرحونه عاريا الا من غلالة البيان امام القضاء الادبى ، بحيث ادى ذلك النوع من النقد الى انحسار اسلوب الصنعة ٠

بعد هذا ، انبثقت انماط نامية من المقالة العصرية يضع كتابهما نصب اعينهم هيبة النقد وسطوة الاقلام فبرزت في افق الادب الحديث تباشير نهضة فكرية تعتمد الوقائع والاحداث، وتربط ما بين الاسلوب والمادة ، وتناقش الموضوع من حيث عصره ومنبته • فى هذه المرحلة بالذات ظهر كتابان مهمان اقاما ضجة واسعة فى الاوساط الفكرية ودفعا بطاقة فعالة جديدة فى ميدان الادب المعاصر : الا وهما كتاب (الشعر الجاهلى) للدكتور طه حسين وكتاب (الاسلام واصول الحكم) للشيخ على عبدالرزاق • وقد كان لهذين الكتابين اثرهما البعيد فى تنشيط حركة النقد المتميز باعتماده اصول البحث العلمى ومراجعة المصادر الثقة والاهتمام بالشروح الدقيقة ، بل ان هذين الكتابين دفعا بكثير من الكتاب الى مراجعة مختلف المواضيع لمواجهة ما جاء بهذين الكتابيين من اراء فى غاية الجراة •

أن اعمال الدكتور طه حسين بالذات لم تقتصر على ذلك الفتح الادبى الموفق فى النقد والتحقيق التاريخي الحديث بل ان مقالاته الادبية التى كان ينشر معظمها فى السياسة الاسبوعية ابتداء من عام ١٩٢٣ فى التعريف بالادب العربى ، قديمه وحديثه ، بلغة عالية الطراز ودراسة موضوعية اصيلة ، كانت بحد ذاتها ملفتة للنظر ، مثيرة ومطورة للحركة الادبية فى العالم العربى ، لقد ناغى ماء الخير تلك التربة الصلبة فاعطت حياة مزدهرة بعد جفاف وعاد الى ادبنا العربى شىء من الشباب •

ان النتاج الادبى الذى قدمه طه حسين سواء فى مجال النقد او التعريف ، او الرواية او المقالة ، تراث فكرى ضخم لم يفد الجيل الحاضر وحسب بل سيكون تراثا حضاريا للاجيال القادمة يسلط لها الاضواء على عصور ثقافية عاشها الادب العربى بين مد وجزر •

وان اول نتاج علمى تقدم به طه حسين وهو ذكرى ابى العلاء المعرى، والجغرافية عند العرب ، والروح الدينية للخوارج لنيل شهادة الدكتوراه من الجامعة المصرية دلل بوضوح تام على العبقرية المبكرة التى اتاحت للرأى العام الادبى ان يطلع على اعماله المبهرة كـ (فلسفة ابن خلدون الاجتماعية) و (فى الشعر الجاهلى) وفى هذا الكتاب

الذى أحدث ضجة عائلة كما قلنا من قبل يقول سامى الكيمالى فى كتابه « مع طه حسين » : « على ان النقطة الحساسة التى عالجها طه حسين فى كتابه وافادت الادب العربى افادة كبرى ليست شكه فى اكثرية الشعر الجاهلى ، ولا تعرضه لتلك النقطة الدينية الحساسة التى اقامت الدنيا عليه ــ دنيا الرجعية المتزمتة ــ بل هى التمهيد للحرية المطلقة ان تشيع فى البحوث الادبية ، فقد دعا ادباء العربية الى التحرز من كل الموضوعات التى تقيدهم ، وطلب اليهم ان لايتاثروا فى بحوثهم باى مؤثر الا الحرية ، لانه يعتقد اعتقاداً صادقا انه لن توجد العلوم اللغوية الادبية، ولن تستقيم فنون الادب الا يوم تتحلل اللغة والادب من التقديس ويباح لنا ان نخضعها للبحث كما تخضع المادة لتجارب العلماء ٠٠٠» ٠

الا ان التيار الرجعى الحاقد لم يعطل مسيرة هذا الاديب العظيم عن مد الادب العربى بنتاج ضخم فى مادته واسلوبه : بل دفع به لان يقدم روائع اعماله (كالايام) و (على هامش السيرة) و (الادب الجاهلى) و (فى الصيف) و (حديث الاربعاء) و(حافظ وشوقى) و (من بعيد) و (من حديث الشعر والنثر) و (مستقبل الثقافة فى مصر) و (مع ابى العلاء فى سجنه) و (شجرة البؤس) (دعاء الكروان) و (المعذبون فى الارض) ٠٠٠ الى غير هذه من عشرات المؤلفات الاخرى ذات النفس الطويل والتتبع العميق والاسلوب الروائى الاخاذ بحيث ساقت هذه المؤلفات الجليلة التيار الادبى الى موجات جديدة متطورة ومطورة ٠

عند هذه المرحلة الهامة التى اجتازها الادب فى مصر ، لمع ادباء بارزون ، يختلفون فى اساليبهم ونظرتهم الى مفهوم الادب ، ومعالجتهم الوانه ، لقد كان كل واحد منهم ينضوى تحت لواء مجموعة او مدرسة أدبية تعنى بشعار خاص ومبدأ محدد الهدف ، تدافع عنه وتذود عن حماه بكل ما توفر لها من امكانيات مادية ومعنوية ٠ فظهرت الى الوجود الادبى مفاهيم كثيرة متشعبة ومتشابكة ، كوحدة المعنى ، ووحدة الاسلوب ، ووحدة الموضوع ، وثار الجدل الواسع حول العظمة

الشعرية والادبية والتجديد فى الاسلوب ، والدفاع عن التجربة الذاتية .. الخ ، ومن هذا الاتجاه الفردى فى المعاناه والعرض ، ومن أطاره الواسع بالذات ، انبثقت اضخم المعارك الادبية فى مصر ، صال فيها من صال واندحر من اندحر واذا بغبار المعركة ينكشف عن مواضيع اكثرها لا يصلح لان يستنفد كل ذلك الجهد والوقت اذ حام جلها حول مفهوم الكلاسيكية والامارة ، والعمادة فى الشعر والادب ، ماهى أجود قصيدة قيلت هذا الاسبوع ، اهى للعقاد ام لشوقى ام لمطران ام لحافظ ابراهيم ، من هو اعظم من كتب هذا الاسبوع ، أهو زكى مبارك ، ام طه حسين ام احمد امين أم الزيات : ،

ايهما اهم : التاليف ام الترجمة ؟ السفور ام الحجاب ؟ الفصحى أم العامية .....

بل ان المعارك الادبية امتدت فى مصر لتتناول حتى (القبعة والطربوش) كما فى المثالين اللذين نشرهما فى الهلال عام ١٩٢٧ مصطفى صادق الرافعى ومحمود عزمى .

ولقد برز فى هذه المعارك الادبية ادباء احتلوا مكانةعاليةفى الادب العربى : كالكاتب العملاق عباس محمود العقاد ، الشاعر المحقق متعدد المواهب ، صاحب (العبقريات) ومنشأ « سارة » ، وواضع العديد من المؤلفات فى الرواية والتاريخ والفن والاجتماع والفلفسة . وزكى مبارك شاعر (الحان الخلود) ومؤلف (ليلى المريضة فى العراق) و (النثر الفنى فى القرن الرابع الهجرى) و (الموازنة بين الشعراء) و (حب عمر بن ابى ربيعة) و (ذكريات باريس) و (مدامع العشاق) ... و (التصوف الاسلامى) ... واحمد أمين الموسوعة الفكرية فى التاريخ الاسلامى . وسلامة موسى الباحث العالم والمتتبع الدقيق فى احدث النظريات العلمية والفلسفية وواضع كتاب (نظرية التطور وأصل الانسان) و (العقل الباطن) و (حرية الفكر وتاريخ ابطالها) و (تربية سلامة موسى) و (هؤلاء علمونى) . وعبدالعزيز البشرى ، المؤلف الاجتماعى الساخر الذى طلع على الادب العربى باسلوب فريد تؤكده كتبه (قطوف) و (فى المرآة) و (المختار)

وابراهيم المازنى صاحب (حصاد الهشيم) و (صندوق الدنيا) و (الديوان) مع عباس محمود العقاد و (ابراهيم الكاتب) ... وتوفيق الحكيم الاديب الفنان المتفوق فى القصة والرواية والمسرحية والنقد . واسماعيل مظهر ، ومحمود تيمور ، ومحمد حسين هيكل واحمد لطفى السيد واحمد حسن الزيات ، وامين الخولى ، وتوفيق دياب ، وعادل غضبان ، ومحمود عزمى ولويس عوض ، وعبد القادر حمزة واحمد الصاوى ، وحسين فوزى وحسن الصيرفى ومحمود غنيم ، وقاسم أمين واحمد زكى ، وابراهيم المصرى ومن الاديبات المجددات البارزات فى النقد والمقالة والبحث عائشة عبدالرحمن (بنت الشاطىء) وسهير القلماوى ، ونعمات فؤاد ، وامينة السعيد وجاذبية صدقى وغير هؤلاء من افذاذ الفكر ومانحى الادب العربى الطاقات الخلاقة .

وظلت هذه المعارك الادبية تنشط حينا وتخفت حينا اخر على صفحات المجلات الادبية والصحف السياسية المهمة انذاك كالرسالة والثقافة والهلال والمقتطف والاهرام والمقطم والمصرى والسياسة ومنبر الشرق . وظل النقد ، حتى اواخر الثلاثينات يعتمد بشكل خاص على ما قدمه اولئك البارزون من مقالات وكتب فى الادب المصرى ، على أن الامر لم يستمر هكذا ، بل أخذت موجة النقد المتراشق سبيلا اخر اكثر موضوعية وملائمة لروح العصر والتيارات الادبية الحديثة : وكان على رأس هذه الحركة الجديدة ناقد بارز واديب باحث هوالدكتور محمد مندور . فبعودة الدكتور مندور من دراسته فى السوربون حيث اطلع اثناء وجوده على مختلف المذاهب الحديثة فى النقد ، نشطت حركة النقد مجددا وعلى أسس جديدة ومفهوم جديد ، فقد استطاع الدكتور مندور ان يمد هذه الحركة بقيم موضوعية وعلم ناضج واسلوب مكين مباشر ، وكانت انطلاقته الاولى فى باب النقد ، هى تلك المعارك المتلاحقة التى خاضها ، على صفحات الرسالة والثقافة ، مع العديد من أدباء مصر وعلى رأسهم ، العقاد ، وسيد قطب ، ومحمد خلف‌الله احمد والتى طرح فيها الكثير من آرائه الثمينة فى النقد ، تلك الاراء التى فتحت منافذ المعرفة وفى احدث نظريات النقد .

لقد ابانت الكتب التى اصدرها الدكتور مندور (كالادب ومذاهبه) (وفى الميزان الجديد) (ونماذج بشرية) (وفى الادب والنقد) ، على براعة فكرية وقابلية مبدعة وعلم وافر . وتركت أثرا بالغ الاهمية فى مدرسة النقد الادبى الواقعى التى تبلمورت فى مطلع الخمسينات - والتى قاد مفاهيمها بعدئذ ، بجدارة وعمق ادباء شباب من امثال محمود امين العالم وعبدالرحمن الشرقاوى ويوسف ادريس وعبدالعظيم انيس ورشدى صالح والفريد فرج وانور المعداوى وعباس خضر واحمد بهاء الدين وانيس منصور وشوقى ضيف واحمد عباس صالح وآخرون حيث نشروا ابحاثهم ودراساتهم ونقدهم فى مجلات اهتمت اهتماما بالغا بنتاج هذه الكوكبة الواعية كالكاتب المصرى والفصول والكتاب والقصة والطليعة والمسرح والكتاب والهلال .. الخ

ان مفهوم النقد عند مندور وادباء المدرسة الواقعية الحديثة ، ينصب على الاهتمام بوحدة الموضوع والتماسك العضوى فيه وبالبناء الفنى للعمل الادبى ، بحيث تعتبر هذه الاركان ضوابط دقيقة لمقايسة النتاج وتقييمه فى اطار وحدة الزمان والمكان.ولهذا فقد كان تعريف مندور للنقد بانه (الدراسة الموضوعية للنص الادبى) بمثابة الانطلاقة الهادفة المباشرة فى أدبنا العربى المعاصر والهمسة الادبية البارعة التى حولت الانظار ببراعة الى معنى موقف الادب من الحياة .

هذا ما كان من امر المقالة وموضوع النقد اما اذا اتجهنا نحو الالوان الاخرى من الادب المصرى ، فنجد ان الرواية والمسرحية بشكل خاص هما عنوان تطور هذا الادب واللمحة النيرة التى فتحت الابصار على آفاق جديدة من انماطه . أذ لم تكن المسرحية المؤلفة معروفة قبل هذا فى أدبنا العربى الحديث بالشكل الذى برزت به المسرحية المصرية .

ولم تكن الرواية الموضوعة ، الا حكاية بدائية الانشاء والتكوين قبل ان تظهر رواية المويلحى (حديث عيسى بن هشام) . ولنعمد الى البداية :

لقد ظهرت فى الادب المصرى روايتان اصيلتان تعتبران الخطوة الاولى فى الرواية الموضوعة وهما (حديث عيسى بن هشام) للمويلحى

التى مزجت بين فن المقامة وبين السرد القصصي المطـــول و (ليـــالى سطيح) للشاعر حافظ ابراهيم ، تلك الرواية التى نبذت روح المقامة وحافظت بكثير من الجهد والمعاناة على طريقة السرد التضميني والترابط فى الافكار . لقد نشرت هذه الرواية عام ١٩٠٦ لتسرد شيئا من تجارب الشاعر ابراهيم منذ مغادرته مصر الى السودان ثم عودته منه وباطار من التصوير الخيالى البسيط .

الا أن القصة الروائية الرائدة « تاريخيا » فى الادب المصرى بحق هى رواية (زينب) للدكتور محمد حسين هيكل . فقد خرجت عـــن طوق المقامة والسرد الانشائي العفوى ودخلت مجال الكتابة القصصية التى تعتمد (العقدة) و (الحل) و (النتيجة) اساسا لبنائها . ان « زينب » باغراقها فى الروح الرومانتيكية وابتعادها عن السرد تمكنت من ان تجد لها صدى واسعا بين قراء الجيل الذى عبرت عنه فقد كانت قصة ريفية تتأمل الطبيعة وتبحث عن المجهول وتهرب من الحياة ذات التقاليد القاسية لتجد أن الحب هو الملجا الحنون الـــذى يستطيع ان يخلص، بل ويتفانى فى الاخلاص المثالى . بعد رواية «زينب» ظهرت روايات كثر لادباء بارزين فهذه « سارة » للعقاد ينحى فيهـــا منحى الرومانسية ، ولكن التكرار والحوار المطول يفسد عليها جوها الداخلى ، كما ان السرد المهتم بالتفاصيل يتجاوز حدوده فيغرف ما شاء له مؤلفه ان يغرف من الطرائف والنكات و « المزوقات » .

وترى الدكتورة الاديبة سهير القلماوى فى مقالها الذى نشرتـــه فى الهلال فى العدد الخاص بالعقاد (١٩٦٧) تحت عنوان (سارة أو عبقرية الشك) : « وهذه سارة الحافز الذى فجر التجربـــة الكبرى يتخذها العقاد عنوانا لروايته اليتيمة ولو انصف لسماهـــا الشك ... » ثم تؤكد ذلك بقولها :

« ويمضى طوال الرواية او السيرة العبقرية للشك فى امواج تعلو وتهبط حتى ينتهى الى ما يشبه راحة اليأس وفراغ الضياع .. »

ومن بين الروايات التي لا يهمل ذكرها « عـذراء دنشـواي » لمحمود طاهر حقي و « سلوى في مهب الريح » لاحد رواد القصـة البارزين محمود تيمور و «قنديل ام هاشم» ليحى حقي و «انا الشعب» لمحمد فريد ابو حديد و « ابراهيم الكاتب » للمازني :

ومع أن رواية « ابراهيم الكاتب » كانت مدعاة للاطراء والتقدير، وكان لصدورها في ذلك الوقت صدى بين الاوساط الادبية الا انها لم تستطيع ان تفتح امام جيـل الشـباب مغاليق الايمان بالمستقبل والامل والطموح فقد اغرقت قراءها في دوامة من الذاتية اللاواقعية وفـي الانخذال امام المحن او كما يعبر عن ذلك عبدالعظيم انيس في « الثقافة المصرية » آنف الذكر بقوله :

« ومما لا ريب فيه ان المازني نسيج فريد بين الكتاب المصـريين المشهورين لأن معظم الاخرين ، كطه حسين أو الحكيم ، قد تطور ادبهم مع الزمن وتميزوا في مراحل زمنية مختلفة بمميزات متباينة غـير متسقة ، فلا يسهل ان نفهم أدبهم الا في ضوء فهم متطور لمراحـل حياتهم . أما المازني فقد كان مخلصا طـول حياته لفلسفة واحـدة يتكامل فيها كل انتاجه الادبي من شعر ومقالة وقصة ، وهذه الفلسفة هي الهروب من الحياة ... »

وعلى العكس من « ابراهيم الكاتب » فقد شمخت آنذاك علامةمميزة في طريق الادب العربي لتضع اساسا متينا للفكرة الحية النـيرة التي تدافع عن مبدأ الصمود الانساني والكفاح في الحياة ، الا وهي رواية عميد الادب العربي طه حسين ، « الايام » .

لقد كانت « الايام » بيرقا مستبسلا امام فلول الظلام ، يمزق حجب الغيبيات والمتاهات ، ويدخل معارك العمل والعلم غير هياب ولا وجل، لم تستطع النكبات ان تفقده قيمة النصر ، فخاض من اجله حتى انتصر: انها رواية . جميلة السرد ، ذكية الحوار قوية الايمان بقدرة الانسان على النجاح وتحديه المصاعب ليصل الى هدفه ويفتح المجال امام الاخرين ليحذوا حذوه ويتخذوا من كفاحه منهجا سليما يسيرون على خطاه .

غير ان (عودة الروح) لتوفيق الحكيم تعتبر اول رواية دقيقة الاداء ، عميقة الفكرة ، محددة الهدف ، جمعت ما بين وحدة الموضوع وجودة العمل الفنى وشكليات التكامل فى البناء الروائى الحديث ، بحيث اعتبرت تنفيذا واقعيا ، لنظرة واقعية مدروسة تجديديـة وايجابية لقطاع عام من الحياة فى مصر اثناء ثورة ١٩١٩ ، وهى لهذا تعتبر ايضا نهجا سليما لمواجهة تلك الحياة وما بعدها .

ولاستكمال الصورة التى اوضح شيئا من معالمها عبدالعظيم انيس فى البحث السابق نورد ما قاله عن الايام وعودة الروح .

« ان الاعمال الاولى الادبية لطه حسين وتوفيق الحكيم هى ، فوق كل شيء ، وثيقة اجتماعية مصرية خطيرة ، لا من حيث انها تقدم قطاعا مستعرضا دقيقا للحياة المصرية فى هذه المرحلة فقط ، بل من حيث انها موقف اجتماعى محدد لكل كاتب منهما ...

نعم ان « الايام » مليئة بالكوارث الاليمة : اخته الصغيرة التى تموت كالنوارة اليانعة فى الحقل الاخضر أذ تدهمها العاصفة ، واخوه طالب الطب الذى اختطفه الوباء وقد أجتاح القرية كلها ، وهو نفسه فتى « الايام » الذى دفع من بصره ضريبة للفقر وسوء الاحوال الاجتماعية . ورغم ذلك كله ، فهناك بسمة الامل .... فقد وصل طه حسين ! : ...

وما يقال عن « الايام » من هذه الناحية يقال أكثر منه عن « عودة الروح » لتوفيق الحكيم ... فتوفيق الحكيم فى هذه الرواية وطه حسين فى «الايام» كانا اذن معبرين عن روح عصرهما وواقعة ، وعن الموقف العام للمثقفين المصريين فى المرحلة الاولى من الصراع الوطنى فى مصر ... »

وأذا ما اتجهنا من نقطة الانطلاق هذه الى ما بعد عودة الروح ، عبر تاريخ الرواية المصرية ، نجد ان الميدان الادبى قد ازدحم بالكثير منها ، الا ان اعمال توفيق الحكيم ظلت هى العلامة المميزة البـارزة فى طريق الادب على الرغم من ظهور كتاب روائيين اسمينا بعضهم من قبل ، ونشير الى بعضهم الاخر الان : كعبدالحميد جودة السحار . وعلى احمد باكثير وسعيد العريان ، وصـلاح ذهنى وعبدالحليم

عبدالله . حتى برز فى هذا الميدان الروائي اللامع نجيب محفوظ فكانت رواياته الرائعة كالسراب وزقاق المدق وبداية ونهاية وخان الخليلى . والتى توجها بعمله الفنى العظيم (الثلاثية) تلك الرواية المتكاملة التى تعتبر من ارفع الاعمال الادبية وأرقاها ، انما هى روايات على جانب كبير من الاهمية فى أدبنا العربى المعاصر ، فكما كانت عودة الروح هى المرحلة الثانية فى بناء الرواية الحديثة فان أعمال نجيب محفوظ ، واخرها رواياته (اولاد حارتنا) و (اللص والكلاب) و (السمان والخريف) تعتبر بجدارة ، الملحمة الفنية الاصيلة فى الرواية العربية الحديثة التى تعتمد روح العصر وتستلهم معانى التاريخ ايضا

ولابد من الاشارة هنا الى كتاب روائيين معاصرين كان لهم دورهم البناء فى الادب المصرى فى هذه الفترة ، وكانت لهم جولات موفقة فى دنيا الرواية الفنية الحديثة ، كعبدالرحمن الشرقاوى مؤلف رواية «الارض» التى تعتبر من الاعمال الادبية القيمة حقا ، ويوسف ادريس، وابراهيم عبدالحليم الذى تكاد تكون روايته (أيام الطفولة) من خيرة أعماله ، ويوسف السباعى واحسان عبدالقدوس ونعمان عاشور وصالح مرسى ونظمى لوقا وثروت اباظة وحسين مؤنس ويوسف جوهر وحلمى مراد ، وبدر الدين خليل وانيس منصور وغيرهم . كما لابد من التنويه بان اتجاه السينما الى انتاج روايات هؤلاء الادباء الكبار قد ادى الى انعاش الادب الروائي ونشره على نطاق اوسع .

اما المسرحية فى الادب المصرى ، فقد بدأت ملامحها تظهر جلية على يدى كاتبين بارزين هما يعقوب صنوع وعبدالله نديم ، فقد كان صنوع رائدا بارزا من رواد الحركة المسرحية فى مصر : ألف اثنين وثلاثين مسرحية وحاول ، فى معظمها ، ان يعالج مشاكل عصره عن طريق المسرح ، أما عبدالله نديم فكان يحاول ان يبث الوعى الوطنى فى صفوف الناشئة، وكانت مسرحياته (الوطن) و (العرب) مثار أهتمام السلطة بحيث أدى الامر بعدئذ الى منع الخوض فى مثل هذه المواضيع اطلاقا ، فأنحسر التاليف المسرحى واتجه رجال المسرح الى الترجمة يركزون جهودهم على تقديم روائع المسرح العالمى لكورنى وشكسبير ورآسين وموليير وبرناردشو وديكنز تلك الاعمال التى قام بترجمتها الى العربية

أساطين الترجمة آنذاك كعثمان جلال وابراهيم رمزي واديب اسحاق ونجيب حداد ثم خليل مطران : فأستطاع ابناء الكنانة ان يطلعوا على تلك الروائع من امثال اوديب ، وعطيل ، ومضحك الملك ، وطرطوف ، ولويس الحادى عشر ، ومدام سان جين وغيرها ·

ولعل من حسن الايضاح ان اقدم هذا الجزء من المشـــهد الاول من الفصل الاول من مسرحية مكابث التى ترجمها نقلا عن الفرنسية الشاعر خليل مطران كنموذج لتلك الترجمات :

الفصل الاول

المشهد الاول

(ارض معشوشبة بقرب فوريس · ابراق وارعاد)

(تدخل ثلاث ساحرات)

الاولى : من اين مجيئك يا اختى ؟

الثانية : كنت اقتل خنازير

الثالثة : وانت يا اختى ؟

الاولى : كانت امرأة ملاح تحمل فى حضنها كستناء ، وتقضم ، تقضم ، تقضم ، فسالتها شيئا منه فطردتنى قائلة «اغربى يا ساحرة » ان زوجها قد سافر الى (حلب) ليكون ربانا بدجلة ، ساركب الغربال مقلعة اليه ، وساعمل سحرى كما يعمـــل الفـــأر نابه ، قرضا ، قرضا ، قرضا ·

الثانية : وهبتك ريحا عاتية

الاولى : لك الشكر

الثالثة : وانا امنحك ريحا ثانية ·

الاولى : اما سائر الرياح فهن لى ، كما ان لى مراسى السفن وسائر الاماكن المرسومة فى خرائط البحار · سأدعه جافـــا كالتبن ، لا يعلق النوم ليلا ولا نهارا باهداب جفنيـــه ، حياته حياة الطريد المحروم يظل يضعف وينحف ، ويذوب تسعة اسابيع مكررة · تسع مرات يأبى القـــدر ان

تغرق سفينته ، ولكنها تستمر عرضة للامواج بـــلا انقطاع ، انظرى ما بيدى ؟

الثانية : أرينا .. أرينا

الاولى : ابهام ملاح قد غرق فى يوم وصوله الى وطنه (تســمع طبول)

الثالثة : الطبول الطبول ، مكبث يقترب

على ايجاز هذا النموذج يتضح ان الترجمة التى طلع بهافرسانها آنذاك كانت حرفية ، متقيدة بالالفاظ الظاهرة من النص دون التعمق فى المعنى والجو العام للمسرحية ، على ان ذلك لا يقلل من شأن تلك البوادر الخيرة التى فتحت المجال امام المسرح المصرى لكى يتغذى بروائع المسرح العالمى ويدفع بالذوق الثقافى العام الى عوالم أشمل .

لقد أدى ذلك النوع من المسرحيات، على الرغم من الطريقة الكلاسيكية التهويلية التى كانت تظهر بها ، الى فائدة كبيرة لايمكن تجاهلها ، اذ فتحت اذهان الكتاب على أنواع جديدة من الوان الادب المسرحى ، وقد ظهرت على اثرها فى هذه الفترة المسرحية الغنائية المصريـــة التى برز فيها سلامة حجازى وسيد درويش،وظهرت ايضا المسرحية الشعرية أول ظهورها على يدى احمد شوقى وكانت اولاها «على بك الكبير» التى الفها عام ١٨٩٣ ثم تبعها بست مسرحيات شعرية هى مجنون ليلى ، قمبيز . أمير الاندلس ، مصرع كليوباترا ، عنترة ، والست هدى . وعن هذا المسرح الشعرى يقول الدكتور على الراعى فى مقاله القيم (نظرة فى مسرح شوقى) والمنشور فى العدد الخاص من الهلال(١٩٦٨)عن شوقى « من يقرأ المسرحيات السبع التى كتبها شوقى قراءة مقارنة بالاداب ـ العالمية ـ تطالعه مفاجأة لطيفة . انه يجد نفسه يبحث عن نظـــائر لشوقى ، لا فى الادب الفرنسى ـ كما هو منتظر ، وكما هو طبيعى . بل فى الادب الانجليزى بالذات يلقى اشباها اقرب لمسرح شوقى فى درايدن وكونجريف ، مما تطالعه فى مسرح راسين او كورنى اوموليير . وفوق هذا ، يجد القارىء شوقى وقد تحول فجأة وبلا مقدمات واضحة من فن درايدن الى فن كونجريف وذلك بعد ان اخرج الشاعر للناس مسرحيته الاخاذة الست هدى والتى اختتم بها القدر مجراه المسرحى ـ لسوء حظنا ـ قبل الاوان .

ثم يقول « ... فانك تقرأ شعر شوقي في مسرحياته فلا نحس انه يضيف شيئا ذا بال لتلك المسرحيات . بل نشعر ان هذه احداث أختير الشعر لروايتها ، وكان يمكن للنثر ان يكون اداتها دون ان تفقد المسرحية ـ كمسرحية ـ شيئا كثيرا ويعلل الدكتور الراعي اسباب ذلك الى انه « اثقلت على شوقي اعتبارات ، لا دخـــل كبير لها ، بصميـــم الفن المسرحي ، بينها انه كان ينظر الى نفسه ، كما كان العصر ينظـــر اليه ، على انه شاعر قومي يكلف بالحفاظ على المشاعر القومية » وبعد ان يعدد وجوه الوضع السياسي والاجتماعي الذى عاشه شوقي واصبح معوقا لتحركه المسرحي في اطاره الشعرى يقول « وفي وجود هـــذه الاثقال جميعا : قلة باعه المسرحي ، وقلة حظه من الخيال والعاطفـــة وتزاحم الاضواء عليه ، لم يستطع شوقي ان يكتب المأساة البطوليـــة المقنعة ، ولم يستطع بالتالى ان يصنع الاداة المعبرة اللازمة لها ، الا وهى : **الشعر الدرامي ...**) .

واليك مقطعا من مسرحية مجنون ليلى كنموذج للشعر التمثيـــلي عند شوقي :

ليلى : دعي الغزل سلمى وحيى معي   منار الحجاز فتى يثرب

(تصافحه سلمى)

ويا هند هذا اديب الحجاز   هلمى بمقدمه رحبى

(تصافحه هند ويحتفى به السامرون)

سعد : أمن يثرب أنت آت ؟

ابن ذريح :   اجل   من القدس الطيب

ليلى : ايابن ذريح لقينا الغمام

هند :   وطافت بنا نفحات النبى

عبلة [هامسة الى سعد] من ابن ذريـــح

سعد :   فتى ذكره   على مشرق الشمس والمغرب

رضيع الحسين عليه السلام   وترب الحسين من المكتب

واليك جزء آخر من المنظر الثانى ـ الفصل الرابع ـ :

قيس : **ليلاى . ليل القلب**

ليلى : قيس ، مالى دارت بى الارض وساء حـــالى

قيس :

فداك ليلى مهجتى ومـــالى من الســـقام ومن الهزال
تعالى اشكى لى النوى تعـالى الفى ذراعيك على خيـــالى

(تصافحه بشوق)

ليلى :

احق حبيب القلب انت بجانبى أحلم سرى ام نحن منتبهـــان
ابعد تراب المهد من ارض عامر بأرض ثقيف نحن مغتـــربان

قيس :

حنانيك ليلى مالخـل وخلـــه من الارض الا حيث يجتمعـان
فكل بلاد قربت منك منـزلى وكل مكان انت فيـه مكـانى

ليلى :

فما لى ارى خديك بالدمع بللا أمن فرح عينــاك تبتدران

قيس :

فداؤك ليلى الروح من شر حادث رماك بهذا السقم والـــذوبان

ليلى :

ترانى اذن مهزولة قيس؟حبذا هزالى ومن كان الهزال كسانى

قيس :

هو الفكر ليلى ، فيمن يفكر ؟

ليلى :

فى الذى تجنى

قيس :

كفـــانى ما لقيت كفـــانى

ليلى :

أادركت ان السهم ياقيس واحد وانا كلينـا للهوى هـــدفان

لقد تتابع ظهور مسرحيات شعرية أخري لخليل اليازجي ،والشيخ عبدالله البستاني حتى وصلت الى عزيز اباظة وعلى احميد باكثير وعلى محمود طه ومحمد فريد ابو حديد وغيرهم · وظهرت فى هذه الفترةايضا مسرحيات جدية مثيرة لفرح انطون وابراهيم رمزى وعبدالرحمنشكرى ومحمد تيمور وابراهيم المصرى وانطون يزبك · كما برزت المسرحية الفكاهية الهادفة على يدى بديع خيرى ونجيب الريحانى · ومع ان فترة العشرينات كانت مزدحمةبالمسرحية المترجمةاو المؤلفة،الاانالمسرحيةالتى أحدثت ضجة فى الاوساط الفنية والادبية حقا هى مسرحية أهل الكهف لتوفيق الحكيم والتى ظهرت الى الوجود عام ١٩٣٣ ، فقد كانت مسرحية تؤمن بالمفهوم الفنى وتحترم معنى التاليف المسرحى ، فيها اشراق فى التعابير ، وجمال فى اللغة ورقة فى الحوار وجدة فى الموضوع · بعد مرحلة اهل الكهف اتجه التاليف المسرحى الى جانب آخر لم يالفه قبل ذاك نقاد وكتاب المسرح الا وهو المسرح الذهنى ، بمعنى اخر ، المسرحية التى تكتب لا لتمثل فقط وانما لتقرأ ايضا ·

وبظهور الفرقة القومية عام ١٩٣٥ نشطت الحركة المسرحية وزاد الاقبال على التاليف المسرحى والترجمة فيه ، واستطاع توفيق الحكيم أن يركز قواعد جديدة فى الفن المسرحي وان يمهد لحركة متطورة نامية فى هذا الميدان·ولعل من المفيد هنا الاشارة الىأهمالمسارحوالشخصيات البارزة التى لعبت دورها فى تطوره ونقله الى المرحلة التى هو عليها اليوم · فمن المسارح البارزة فى فترة العشرينات الى نهاية الثلاثينات، مسرح رمسيس ، مسرح درويش ومسرح سلامة حجازى ومسرح الكسار ومسرح الريحانى ، أما الاشخاص البارزون الذين لعبوا دورا مهما فى تلك الحركة المسرحية ، فهم عزيز عيد ويوسف وهبى وزكى طليمات وجورج ابيض ، وبديع خيرى ونجيب الريحانى ،ومحمد تيمور وابراهيم رمزى وأمين صدقى ، فقد ألف هؤلاء وترجموا مسرحيات استطاعت ان تخلق وعيا مسرحيا واسعا بين صفوف الشعب ·

بعد هذه الانتقالة انطلقت المسرحية الى آفاق جديدة على المسرح المصرى الحديث قام بها ادباء تشبعوا بالنظريات الحديثة واستفادوا مما يكتبه نقاد المسرح المثقفون الواعون واطلعوا على أمهات المسرحيات العالمية التى أخذت تشق طريقها بسهولة ويسر الى المكتبة

العربية · وقد كان للثورة المصرية عام ١٩٥٢ فضلها الذى لا ينكر على الادب المسرحى ، حيث كونت فرق كثيرة وانشأت مسارح متعددة وأسهمت الدولة فى تشجيع الحركة المسرحية ومنحت المعونات للمسارح وللمؤلفين المسرحيين · فظهر كتاب مسرحية جدد عالجوا مختلف أنواع الفنون المسرحية ، من الرمزية الى السيريانية الى اللامعقول ·· الخ · وظهر ايضا الاتجاه الفلسفى فى المسرحية من خلال اطار التحول الاشتراكى فى الدولة ·

فى هذه المرحلة ظهر نعمان عاشور الكاتب المسرحى الفنان ليقود الادب المسرحى الجديد وظهر معه ادباء بارزون قدموا خدمات جلى للادب المسرحى الحديث من امثال عبدالرحمن الشرقاوى ويوسف ادريس وسعد الدين وهبه ولطفى الخولى والفريد فرج ويوسف السباعى ورشاد رشدى وغيرهم · ولابد من القول ان كتاب المسرح الكبار كتوفيق الحكيم وعلى أحمد باكثير ولويس عوض قد ساروا مع المرحلة ولم يصرعهم التيار الحديث ، بل ان توفيق الحكيم ، على سبيل المثال ، استطاع ان يقف مع قادة المسرحية الحديثة فيؤلف حتى فى اخر الوان اللامعقول مسرحيته المعروفة _ يا طالع الشجرة _ ·

وارى انه لابد من الوقوف عند هذه المسرحية باعتبارها تمثل لونا جديدا فى الادب المسرحى فى مصر وتعتبر نموذجا له · يقول توفيق الحكيم فى مقدمة المسرحية « يا طالع الشجرة ، هات لى معك بقرة ، تحلب وتسقينى بالملعقة الصينى · الخ ··· الخ ·

هل لهذا الكلام معنى ؟ ··· ما هو المعنى الذى يمكن ان يكون له ؟··ومع ذلك فان اجيالا من الاطفال والصبية قد رددوه وما زالوا يرددونه فى بلادنا ··

ولقد سالت اخيرا صبيا يردده ؟ وكان فطنا ذكيا ، فاعترف بانه فعلا لا يفهم له معنى وانه من غير المعقول فى رأيه ان تكون هناك بقرة فوق الشجرة ···»

ثم يقول « ··· هذا هو السبب الذى دعانى اليوم الى كتابة هذه المسرحية فنحن أولى من غيرنا باستلهام اساليبنا الشعبية فى الاتجاهات الفنية المختلفة · ولم اشا عن عمد ان اكتب هذه المسرحية

بلغة شعبية ، أى بالعامية وذلك لسببين : الاول أنى اردت أن يكون مفهوما ان الاستلهام ليس هنا على اساس لفظى او لغوى بل على اساس آخر ۰۰۰ فنحن قد اعتدنا عند النظر فى ادبنا الشعبى ان نتجه توا نحو اللغة ، والى اللفظ ۰ وهذا يصرفنا احيانا كثيرة عن تأمل الاسلوب الداخلى للتعبير الفنى ذاته ۰ ولماذا هو واقعى أو غير واقعى ۰ وما سر اللامعقولية واللا منطقية فيه ؟ ۰۰۰ وما هدف الفنان الشعبى من هذا اللون من الوان التعبير ۰۰۰ وكيف استطاع ان يرتاد بهذه الطريقة مناطق عجيبة ۰۰۰

والسبب الثانى : ان المسرحية ـ وقد خرجت قصدا عن الواقعية ـ سقط المبرر لاستخدام اللغة الواقعية لاشخاصها ۰ واصبح من الملائم لحوادثها غير الواقعية لغة غير واقعية ايضا : اى غير عامية ، وبذلك يبتعد التعبير والتصوير عن الواقع على قدر الامكان ۰۰۰ سواء فى الشخصية او اللغة ۰۰۰ على انه من الضرورى هنا ان الفت النظر الى امر هام : وهو انى اعتقد ان مسرحنا الحاضر لم يزل فى حاجة ماسة الى الفن الواقعى الى سنوات عديدة مقبلة ۰ فنحن لم نفرغ بعد من تصوير وتسجيل مراحل حياتنا الواقعة ومجتمعنا المتطور ۰ ولهذا لا انصح بهذا اللون غير الواقعى الا فى اضيق الحدود ۰۰۰»

وارى ايضاحا للفكرة التى ساقها الاديب الفنان توفيق الحكيم فى تلك المقدمة ان اقدم هذا المقطع « اللا معقول » من القسم الاول من المسرحية :

لا توجد مناظر فى هذه المسرحية ۰ ولا توجد فواصل بين الازمنة والامكنة ۰ فالماضى والحاضر والمستقبل أحيانا توجد كلها فى نفس الوقت ۰ والشخص الواحد يوجد احيانا فى مكانين على المسرح ويتكلم بنفس صوته مرتين فى نفس الوقت ۰ كل شىء هنا متداخل فى كل شىء ۰۰۰ ولا يوجد اثاث ثابت ۰ كل شخص فى المسرحية يظهر حاملا بيده اثاثه ولوازمه ويخرج بها بعد الانتهاء منها ۰۰۰ وهكذا يظهر ضابط المباحث أو الشرطة «المحقق» حاملا بيمينه كرسيه وملفه ۰ وتظهر خلفه «الخادم العجوز» تحمل منضدة خفيفة أمامه فينشر عليها اوراقه ۰

المحقق : متى اختفت سيدتك بالضبط ..؟

الخادمة : ساعة عودة السحلية الى حجرها .

المحقق : تقصدين المغرب ؟

الخادمة : لم ابصر الشمس تغرب

المحقق : ومتى تعود السحلية الى حجرها ؟

الخادمة : عندما يظهر سيدى من تحت الشجرة

المحقق : ومتى يظهر سيدك من تحت الشجرة ؟

الخادمة : عندما تنادى عليه سيدتى

المحقق : ومتى تنادى عليه سيدتك ؟

الخادمة : عندما يرطب الجو فى الجنينة .

المحقق : ومتى يرطب الجو فى الجنينة ؟

الخادمة : عندما تقول له سيدتى ذلك .

المحقق : ومتى تقول له سيدتك ذلك ؟

الخادمة : عندما افرغ من عملى هنا واتاهب للعودة الى منزلى .

المحقق : ولماذا تعودين الى منزلك ؟

الخادمة : لانى ابيت فيه دائما مع زوجى العاجز الكفيف الذى اجرى عليه ...

المحقق : وعندما تاهبت للعودة الى منزلك يوم الحادث كانت سيدتك هنا ؟

الخادمة : لم تكن هنا .

المحقق : اين كانت اذن ؟

الخادمة : قد خرجت

المحقق : قبل ان تنادى زوجها كالمعتاد ؟

الخادمة : نعم . قبل ان تناديه .. تركته فى الجنينة .

المحقق : لماذا ؟

الخادمة : قالت انها لن تتاخر اكثر من نصف ساعة ... مسافة

الطريق ٠٠٠ تشترى بكرة جديدة من خيط الغزل ٠٠٠ تنسج به ثوبا صغيرا لبنتها ٠

المحقق : بنتها ؟

الخادمة : نعم بنتها بهيه ٠

المحقق : اين هى بنتها بهيه ؟

الخادمة : لم تولد

المحقق : لم تولد ؟ ٠٠ ومتى ستولد ؟

الخادمة : لن تولد

المحقق : وكيف تعرفين انها لن تولد ؟

الخادمة : هذا شيء معروف

المحقق : ولكنى انا لا اعرف ٠٠٠ اخبرينى !

الخادمة : كانت ستولد من اربعين سنة ٠ ولكنها لم تولد ٠

المحقق : ولماذا لم تولد ؟

الخادمة : اسقطتها فى شهرها الرابع ٠٠٠ عملا بكلام زوجها

المحقق : زوجها هذا الذى فى الحديقة ؟

الخادمة : زوجها الاول المتوفى

المحقق : وزوجها الحاضر غير المتوفى لم ينجب منها اولادا ؟

الخادمة : زوجها الحاضر هذا تزوجها وقد جاوزت الخمسين ٠ منذ تسع سنوات ٠٠٠ كانت قد قطعت الخلف ٠

المحقق : وما دامت قطعت الخلف ولم تلد ٠٠٠ ولن تلد ٠٠٠ فلماذا تنسج ثوبا لبنتها التى لم تولد ولن تولد ؟

وهكذا يستمر الحوار فى دوامة من المعميات والتداعى فى مسلك الحوار وترك الذهن يجول بحرية واسعة لها ضوابط وقتية لا تتقيد بالمنطق ولا الواقعية : لهذا فانها مسرحية لا واقعية :

الادب السوداني

لم يكن وضع السودان السياسي والاجتماعي مختلفا عن بقيـمة اجزاء الوطن العربي الاخرى قبل ان ينال استقلاله ويأخذ مركزه الدولى لقد وقع السودان تحت وطأة الاستعباد البريطاني واضحت مقـدرات البلاد فى حدود المصالح الاستعمارية .. ولكن شيئا واحدا لم تستطع القوى الاستعمارية ان تقف ضده : الا وهو الثقافة العربية الواسـعة التى كان ابناء الكنانة يغذون بها اشقاءهم فى الجنوب . ولعل مكانـة الازهر وما دفع به من نتاج فى الاوساط الثقافية فى مصر ، ادى الى ان يستمد الفكر السودانى منه قوة على الاستمرار فى اطار من منابع الفكر العربى والاسلامى الذى تمكن الى حد ما ان يطور الادب الصـوفى فى السودان .

لقد استطاع ادباء السودان وكل الطبقة المثقفة فيه ان تستفيد من نتاج مطابع مصر فائدة كبيرة ادت الى دفع عجلة الادب الى الامـام واجتياز العقبات التى كانت تحول دون انطلاقه فى اجواء الادب الرحبة .

ومما لا ينكر ايضا ان للروابط المتينة ما بين السودان ومصـر اثارها فى اتجاه ابناء السودان الى الاسـتزادة من الثقافة العربيـة عن طريق البعوث العلمية الى جامعات مصر : كما ان الاساتذة المصريين الذين كانوا يقومون بواجباتهم الثقافية فى السودان تمكنوا من ان يوجهوا الحركة الادبية والفكرية فى السودان الوجهة الصحيحة ذات الطابع العربى العصرى .

لقد تجاوز ابناء السودان ـ كما قلنا ـ الحدود الضيقة التى كان يضربها عليهم المستعمرون ، ووجدوا لهم سبيلا نفذوا منها الى مجالات حديثة برزتها موجة الترجمة لكتب الروايات والاشعار الاوربية الى اللغة العربية ، مما ادى الى ان يحاول الاديب السودانى الاستزادة من الثقافة من جهة واتخاذ اسلوب المحاكاة ينبوعا يمد المعانى الادبية المتعارف عليها بطاقات نشطة جديدة التركيب .

وكانت مرحلة محاكاة ادباء مصر البارزين فى اعمالهم الفنية من امثال احمد شوقي وطه حسين وتوفيق الحكيم ومحمد حسنين هيكل وعباس محمود العقاد وحافظ ابراهيم وخليل مطران واحمد حسن الزيات والمازني هى الطريق الاول الذى سلكه ادباء السودان فى تلك الالوان الادبية ·

ولعل الصحف السودانية التى كانت تسير على نمط الصحف المصرية فى نشأتها الاولى كالمؤيد والمقطم والمقتطف والهلال ، على أسلوبها على وجه التحديد، قد تمكنت من ان تشد القراء السودانيين اليها وان تبعث فيهم حماس المتابعة ، وتدفع فيهم المكنة على التاليف والكتابة·

ومن بين الصحف السودانية البارزة التى كان لها دورها الفعال فى الحركة الادبية فى السودان : مجلة النهضة السودانية التى كان يرأس تحريرها محمد عباس ابو الريش ومجلة الفجر التى كان يرأس تحريرها عرفات محمد عبدالله والسودان الجديد وصوت السودان ، لقد استطاعت هذه الصحف استقطاب الحركة الادبية فى السودان وجذب ابرز اقلام الادباء السودانيين والعرب ايضا الى صفحاتها ، وقد دللت مجلتا النهضة والفجر بشكل خاص على ان فى السودان ادباء تمكنوا من ان يقفوا جنبا الى جنب مع ادباء العربية البارزين وان يمدوا الادب العربى بالجيد من نتاجهم ·

فعلى صفحات مجلة الفجر مثلا ظهرت كثير من القصص القصيرة والقصائد وفصول الترجمة كتبت بأسلوب شيق عصرى ومادة طيبة الفكرة·لقد اشتهر في هذه الحقبة بالذات ، قبيل الاستقلال ، ادباء سودانيون كبار قدموا ثمارات نتاجهم الى المكتبة العربية مدللين بها على قابلياتهم الفكرية العميقة واساليبهم الفنية الحديثة ، كاسماعيل فوزى ومدثر البوشى والشاعر عبدالله عبدالرحمن ومحمد هاشم صاحب قصة (تاجوج) التى تعتبر من احسن القصص السودانية التى ظهرت فى المرحلة الاولى من الادب الحديث · والدكتور عبدالله الطيب المجذوب والشاعر الطاهر المجذوب والشيخ محمد الضرير ، والشاعر محمد عمر البنا صاحب اشهر معلقة فى الادب السودانى الا وهى قصيدة (الحرب صبر) ، والشاعر الكبير عبدالرؤوف سلام والتيجانى

يوسف بشير وسيد عبدالعزيز ومصطفى بطران وعبدالله عمر النبى وعثمان هاشم وغيرهم .

وليس هناك مثل اوضح من قصيدة (الحرب صبر) آنفة الذكر فى تصوير روح العصر ومقدرة الشاعر على التحكم فى الصياغة :

الحرب صبر واللقاء ثبات
والموت فى شأن الاله حياة
الجبن عار والشجاعة هيبة
للمرء ما اقترنت بها العزمات
والصبر عند الناس مكرمة ومق
ـدام الرجال تهابه الوقعات

ثم يقول :

والعمر فى الدنيا له اجل متى
يقضى فليس تزيده خشيات
فعلام خوف المرء ان غشى الوغى
نفس الكريم وحانت الاوقات
والفخر بيع النفس للـ
ـه العلى واجرها الجنات
ان الجهاد فضيلة مرضية
شهدت بمحكم اجرها الآيات

لقد تناول ادباء السودان الوانا شتى من أنماط الادب العربى . لقد كتبوا فى الشعر اول الامر باعتباره اقرب المصادر الى نفوس العرب ، وباعتباره المعبر الاصيل عن المشاعر الانسانية والدينية التى تطغى على الحياة الادبية فى السودان .

ولعل ما ذكره الاستاذان التيجانى عامر ومحمد المهدى المجذوب عن دور الادب فى معركة التحرر والبناء فى الوطن العربى يعطى صورة واقعية ومباشرة عن تلك الانماط فى الادب السودانى الحديث حيث ذكرا « بأن الادب السودانى مضى يدير دفة الثورة العارمة التى تطاير شررها فى عام ١٩١٩ فى مصر حتى أمتد لهيب المعارك الدامية الى الخرطوم عام ١٩٢٤ وكان الادباء السودانيون يلعبون دورا طليعيا فى ذلك وبخاصة فى مجال الشعر حيث ظهرت فى الافق الادبى قصائد لامعة تعتبر نموذجا حيا للشعر الثورى فى تلك الحقبة » كقول الشاعر صالح عبدالقادر :

من لقومى انهم قد اهملوا
ما بنى ابآؤهم فانهدما
وقضى الدهر على امالهم
ليت شعرى من بهذا حكما

وكقول الشاعر عبدالله الكردى وهو يخاطب حاكم السودان البريطانى بقوله :

يا حاكما قلبه يصبو لسودنة
مرجوة النفع فيما ذاع من خبر
اعط الشبيبة سؤلا فى مواطنها
ما كان بدعا ولا امسى من الكبر
وقل لقومك فى سر وفى علن
ان الشبيبة لا تخشى من النذر
والبيض والسود أقوام سواسية
والملك من هبة الرحمن للبشر
وأطلق الرأى من حبس أضربه
ولا تطع اثما يغريك بالضرر

وكان من امانى ادباء السودان واهدافهم ان يعلن اتحاد مصر والسودان وقد ذهبت تلك الامانى الى ابعد من ذلك حتى كتب اكثر من شاعر فى هذا المعنى الجليل :

فالشاعر الشيخ العباسى منشىء الطريقة السمانية فى كل من السودان ومصر يقول مثلا :

والنيل راقصة به
امواجه والشاطئان
ويقول مغتبطا به
نعم الموافق والمعان
ما مصر والسودان الا
فى رباه عشيرتان
وربيبتان بحجره
وعلى هواه مقيمتان
ويداهما مهما بهن
ترمى النوى تتصافحان

وقال الشاعر الشيخ عبدالله عبدالرحمن فى وصفه للعلاقة التى تربط مصر بالسودان متخذا من نهر النيل العظيم معنى صادقا لتلك الصورة .

تحدر من اقصى الجنوب ولم يكن
لتمنعه حساده وعواذله
تحدر لا عن جفوة بجنوبه
ولكن شوقا للشمال يداخله

أو كقول العباسى ايضا :

بنى مصر حياكمو ذو الجلال
بعرف تحياته الزاكية

واسـدى بأحسانه منعمـا
لكم كـل صالحـة باقيـة

بكـم عدت اليـوم ام اللغـات
كحسنـاء فى حفلة صافيـة

حملتم بمصـر وبالمشـرقين
رسـالة آدابهـا العاليـة

اجـل وشأوتم بسـحر البيان
عبـاقرة الاعصر الخاليـه

بيـان كذى البدر فى تمـه
يشـق حشا الليلـة الداجية

بلونا الكـرام فكـان البنـاء
وكنتم له حجر الزاويـة

ومن هذا المنطلق الشعرى خرجت العشرات من المقالات والقصائد واستمر هذا اللون من الادب يتغلغل فى صفوف الطبقة المثقفة مشعلا فيهم روح الكفاح من أجل الحرية والاستقلال ·

وباعلان الاستقلال وزيادة الوعى الثقافى بين ابناء السـودان بدت فى افق الادب ملامح الوان جديدة تدخل فى جوانب الادب العربى فى السودان وتمنحه طاقات مبدعة ودماء ثرة ، الا أن اللون السياسى بقى هو الصفة البارزة الغالبة على الادب العربى فى السودان وهـذا يدل دلالة واضحة على ان الادباء السودانيين لا يختلفون عن باقى الادباء فى الوطن العربى الكبير فى اندفاعهم من أجل تثبيت قواعد وأسس التحرر فى كل جزء من أجزاء هذا الوطن ·

قتـال ولسنا نبالى القتـال
فيا مرحبـا بالونى والنضـال
عباب يمـوج هنا فى الجنوب
له موعـد فى عبـاب القتـال

وتحز فى نفس الشاعر السودانى مأساة فلسطين وتدمى جنانه آلام اللاجئين فيقول الدكتور عبدالله الطيب :

وكيف يسلو اخوهم وهو تؤرقه
لواعج الهـم لا يعلوه الهـابا
فى الشرق والغرب اخوان ألم بهم
صرف الزمـان فانحى الظفر والنابا
مشـردين بافاق رجاؤهـم
داج الاح جبين الشمس ام غابا

أو كقول الشاعر ادريس محمد ، حينما وقع العدوان الآثم على مصر عام ١٩٥٦ :

بى ما بصـدرك يا مصـرى من لهـب
وشـيجة الحـق والتاريخ والنسب
عم البـلاد ذهـول لا تحـدده
حـدود ارض ومشـبوب من الغضب
هـذا الدم الثائر المهتـاج نبعثـه
نـاراً ونحرق فيـه كـل مغتصب

× × ×

كل العروبـة لما مس اخـوتهم
بأس المغير سـعوا فى نخـوة العرب
عروبـة وحدة الاحساس تجمعهـا
كما التقت فى اتحـاد الاصل والحسب

والى جانب هؤلاء الشعراء يقف شاعر وطنى آخر هو جيلى عبدالرحمن الذى ردد السودان والعالم العربى كثيرا من قصائده الحماسية مثل هذه القصيدة التى يخاطب فيها اباه :

لماذا -ابى- فى عروق النشيد يمور دما عاصفا ساخنا
لماذا يؤرق تلك الليالى وكانت لظى راكدا آسنا
ويضرم قلبك مثل اللهيب وقد كان يا أبتى آمنا
وانت ركزت على الامانى وانت عقدت علي المنى
ولكنهم يا أبى قد أرادوا بان استذل وان اسجنا

أو كقول شاعر مجدد آخر هو محى‌الدين فارس :

ما زلت أصعد
وحدى هنا ما زلت أصعد
والليل تمثال مصفد
هجرته آلهة القرون وزايلته رؤى قياصره القديمه
عيناى بالافق البعيد ترود ارصاد النجوم
تطرى متاهات الغيوم
ما زلت أصعد
وحدى هنا ما زلت أصعد
والريح تجذبنى بمشجبها العنيد
للقاع يا اختاه تجذبنى بمشجبها العنيد
وخواطرى البلهاء تعلق بالصدى المنغوم فى الافق البعيد
وتلم اركان البعيد

وانا اريد وكم اريد

ولست أملك ما اريد

الا ان في الشعر السوداني ملامـح رومانتيكية كثيرة فيها : الصورة الرائعة والتشبيه الجميل والوصف الخلاب :

فالتيجاني يوسف بشير يقول مثلا :

ايه طير الشباب من صاغ هذا ال — حسن في زهوه وفي استكباره

من اذاب الضياء فيه ومن نغـ — م شجو الهوى على اوتـاره

من رمى ما اصاب من صور الفتـ — نة من زرهـا عـلى ازراره

والفتور الذي بعينيك من مـو — ه سـحر الحياة في اقطـاره

نظرة كالصـلاة زلفى الى الله — له وقربى لعـزه واقتـداره

ويقول الشاعر طمبل :

جلسنا عشاء بقـرب النهر — وقد فضفض الماء ضوء القمـر

ونام على الرمـل أطفالنـا — وغيرى انبرى لاهيا بالسحر

وما هم نفسي سوى منظـر — أثار بنفسي شـتى الفـكر

طلول شخصن باعـلى الربى — وفي صمتهن دروس العبـر

او كقول الشاعر المبدع محمد المهدى مجذوب

ان حبى أسـره فهى سر — وحنين بـلا مهـاد وظن

زهرة في ضميرها العسل الخفاق روض بقطرة مسـتكن

حبهـا الروح ملء روحى على قربى وقربهـا كم تضن

انت حبى فما ينالك شـعر — نال منى ولا ينـالك فن

نفسـى حب فيـه دمى — المحرور لفح أشمه وأجن

انا اهواك لى ذمام وهل يغنـى ذمام ولى غـرام يحن

لم ازرها لان عينى لا تؤمـن كاس بهـا ترف ودن

فى حشاى المشوق سحب ولا تهمى بارض تخاف لمع البروق
جنة حلوة الثمار بها الغدران تغنى من السحاب الدفوق
يشتهى قطرة من العسل المخبوء نحل منثور فى عروقى
وحشاى المشوق سحب من الريح بها الشوق صرخة من غريق

لقد تطرق الادب العربى فى السودان الى الوان شتى من الادب فقد عالج المقالة والشعر والقصة القصيرة ـ كما اوضحنا من قبل ـ وبادر مبادرات جيدة فى الرواية الطويلة ·

وفى هذا المجال لابد لنا من تناول نموذج حي للادب الروائى السودانى الجديد وهذا النموذج يتمثل بشكل واضح ومثير فى رواية (موسم الهجرة الى الشمال) للاديب السودانى البارز الطيب صالح·

فى كثير من الاعياد تنفلق فى كبد السماء شعل ذات ألوان زاهية تبدأ من منطلق الصوت وتنتشر حزما فخيوطا تتباعد بعد حين لتختفى فى المجهول: هكذا تترآى لى رواية الطيب صالح الملحمة «موسم الهجرة الى الشمال» هى تثبت اقدامها فى ارض منبتها اول الامر ثم تعود لتتحرك فى مساحات واسعة من الامكنة والازمنة :

تنتقل معانيها على جمل خفيفة الحركة ، مباشرة المعنى من كلام بسيط يتسامر به ابناء الريف ، فهو شهى خلاب ، الى حديث مثقف الفكرة عميق العبارة موزون الكلمة يدور بين صفوة من اولئك الذين درسوا ثقافة العصور ، وآداب وفنون وفلسفات الامم · ان رواية الطيب صالح ، عمل فنى محبوك الصيغة ، له ابعاد حسية وواقعية يدور فيه تيار الوعى أو الحوار الداخلى يتلمس مفاهيمه بتنسيق عجيب التراكيب من المرامى العميقة للنفس الانسانية · فانت واجد فى هذه الرواية الفذة ، الحكمة تعايش النكتة اللاذعة ، والشعر الموسيقى العذب ، تحد من نشاطاته الفنية جمل روتينية ذات مساس بمهام أدارية وزراعية · والحوار ذكى ينساب بلا تكلف او تأطير وانما بتخطيط ووعى ومتابعة دقيقة للبناء الدرامى والعضوى للرواية كلها· واللغة تخدم الشخصية ولا تبتعد مطلقا عن فلك ومدار محورها . لا تلتقط الشوارد بل تنبعث بأصالة من صميم الحدث مثل لحن

هارمونى التوزيع . وحين أقدم هذا الاثر البـاهر واسهب في التعريف به فلست اقصد من وراء ذلك منحه الاطراء المجامل ، او «التقريظ» الانشائي المسرف او عقده مقارنة عابرة مع الشامخ من ادبنا العـربي الحديث . انما أقصد الى وضع علامات تقديرية كاملة لهذه الروايـة لا باعتبارها نموذجا للادب السوداني الحديث ، بل لانها انطلاقة موزونة الخطى على درب الادب العربي المعاصر .

لقد نشرت هذه الرواية اول مرة فى مجلة «حوار» فى ايلول عام ١٩٦٦ ، ثم صدرت فى كتاب الهلال الشهرى : وكان لصدورها الاول ضجة ذات صدى بعيد فى الوسط الادبى والثقافى .

تتحدث الرواية ، عن شاب سودانى عاش الصـراع الواقعى والطبقى فى مجتمعه المتواضع على ضفاف النيل فى السودان : وعاش المجتمع الغربى بكل ثقافاته وتعقيداته المزدحمة بالمشاكل الحياتيـة : عاش الثقافة الواعية الباحثة المنقبـة فى اداب وفلسفات ومذاهب ومعتقدات قديمة وحديثة : المتنقلة بين شكسبير وبوذا واوسكار وايلد ودانتى واسخيلوس . بين نيازك واقمار فكرية تجوبها أداب وفنون على كل العوالم الحضارية الغربية ، وبين الانغلاق النفسى على العـالم الخاص المضطرب المجهول المتمثل فى بطل الرواية مصطفى سـعيد . ان قصة مصطفى سعيد العبقرية الشابة القلقة التى حملت معهـا الى أرض الضباب كل أماني وتطلعات الشباب فى التقدم والحب والجنس بعيدا عما يشده الى بعض تقاليد كان يراها بالية لا تستحق العنايـة والارتباط . انها قصة الصراع بين دواخل الانسان ذاتيا وتحكمـه وتحركه وهموده وبين اطواق العالم الخارجي الذى يحتم عليه سلوكا محددا يطفو عليه مجبرا مثل قشة فوق أمواج بحر هدار .

ان مصطفى سعيد تركيب انسانى شرقى ينقل معه اينما حـل ما يعينه على الوصول الى هدفه بذكـاء وثقافة ومقـدرة مستفيدا من كل حرف قرأه وكل منظر شاهده ، وكل صوت طرق مسمعه . لا يضع الشيء الا ويدرك مدى وعمق صداه فى المتحدث لـه . ان مصطفى سعيد نموذج للفنان منقسم الشخصية المندفع بلا حدود وراء حريته النفسية . لكنه يدرك بعد حين ان حريته النفسية التى يبحث عنهـا

في أعماقه وفى اعماق الاخرين لا يمكن لها أن تستمر بلا ضـوابط وتوجيه ورعاية خاصة • ويدرك ايضا ان العوالم التى عاشها كتلميذ نابغ ومن ثم كأستاذ للاقتصاد في جامعة لندن في الرابعة والعشرين من العمر وكرئيس لجمعية الكفاح لتحرير افريقيا وغيرها من المراكـز البارزة تعود مجددا لتصغر تماما ولتصبح الارض التى رعته طفلا ، يدخلها بعيدا عن امجاده وثقافاته وتوافهه ومطامحه وانتكاساته : بعيدا عن دنيا الاسطورة التى خلفها وراءه وهى تفوح (برائحة الصنـدل المحروق والند) •

ان تحديد شخصية البطل فى هذه الرواية يرتبط ارتباطاعضويا ومصيريا بالمكان والزمان الذى يعيش فيه ، بلا محاولة تعديه الا بمـا هو طبيعي وواقعى • وهذا التحديد المرسوم بدقة يتصل بموازنـة منطقية • بالانسان الذى تدور فى فلكه وتتعامل مع منطلقاته •

على ان الامر لا يقتصر على بناء الشخصية ، والحوار الداخلى والتحركات السريعة التى تنقلها الينا عدسة تصويرية دقيقة ، ولا الانتقالات من فكرة الى فكرة • بل يتعداه الى مفهوم واسع للحياة التى تتخذ منها الرواية مسرحا للحركة الهادفـة الى مزيد من التشبث بنوع من الحياة ، معبرة عن الحرية والتفتح والثقة العالية بالنفس •

والرواية بعد هذا وذاك مزيج من الاعتراف الكامل المنسـق لانسان بلغ تلك الذروة من الثقافة : اعتراف يتعدى التدرج الزمنى الرتيب ليصل الى مراحل متفرقة من الزمن تتقارب وتتباعد بحسب الانتقالات الذهنية مرورا بذكريات الامكنة •

ففى الاعتراف الهامس الذى يخشى بحذر الانزلاق الى الاعترافات التفصيلية يقول بطل الرواية مصطفى سعيد :

(سأقول لك كلاما لم اقله لاحد من قبل •• لم اجد سـببا لذلك قبل الان •• قررت هذا حتى لا يجمح خيالك وانت درست الشعر • لذا فان لى عندك رجاء واحدا ان تعـدنى بشرفك •• ان تقسم لى ، بأن لن تبوح لمخلوق بشيء مما سأحدثك به الليلة)

وفي مكان آخر ، نرى صورة من الاعتراف المباشر يوم وقف في اولدبيلي فى لندن يحاول ان يصرخ فى وجه المحكمة بعد ان ارتكب جرائم لم يجد بدا من ارتكابها (.. هذا المصطفى سعيد لا وجود له ... انه وهم ... انه اكذوبة ... وانني اطلب منكم ان تحكموا بقتل هذه الاكذوبة) . لكنه لم يستطع ان يطلق ذلك الصوت فقد كان « هامدا مثل كومة من رماد » .

وفي ركن آخر يربط بين اجزاء اللوحة : نجد لونا صارخا من الاعتراف النفسي بمدى افادة بطل الرواية من ثقافته .

« .... كانت لندن خارجة من الحرب ... ومن وطاة العهد الفكتوري ... عرفت حانات تشلسي ... واندية هامستد ومنتديات بلومزبرى ... اقرأ الشعر واتحدث فى الدين والفلسفة وانقد الرسم واقول كلاما عن روحانيات الشرق .. أفعل كل شيء حتى ادخل المرأة فى فراشي ... ثم اسير الى صيد آخر ... لم يكن فى نفسي قطرة من المرح .)

كما نجد فى راوية اخرى تحليلا صادقا وامينا للبطل نفسه حينما يقول في رسالته الوداعية (اننى اترك زوجتي وولدى . وكل مالى من متاع الدنيا فى ذمتك ... وانا اعلم انك ستكون أمينا على كل شيء ... اونا اترك لك تقدير الوقت المناسب لتعطى ولدى مفتاح الغرفة وتساعدهما على ادراك حقيقة امرى . انه يهمني ان يعلما اى نوع من الناس كان ابوهما .

ـ اذا كان ذلك ممكنا اصلا ـ وليس هدفي ان يحسننا بى الظن . حسن الظن هو اخر ما ارمى اليه . ولكن لعل ذلك يساعدهما على معرفة حقيقتهما ، ولكن فى وقت لا تكون المعرفة فيه خطرا . اذا نشئا مشبعين بهواء هذا البلد وروائحه والوانه وتاريخه ووجوه أهله وذكريات فيضاناته وحصاداته وزراعاته فأن حياتي ستحتل مكانها الصحيح كشيء له معنى الى جانب معان كثيرة اخرى اعمق مدلولا ... اننى لا ادرى اى العملين اكثر انانية ، بقائي ام ذهابي . ومهما يكن فانه لا حيلة لى ، ولعلك تدرك قصدى اذا عدت بذكراتك الى ما قلته لك تلك الليلة . لا جدوى من خداع النفس . ذلك

النداء البعيد ما يزال يتردد فى اذنى . وقد ظننت ان حياتى وزواجى سيسكتانه ولكن خلقت هكذا ، أو ان مصيرى هكـــذا ، مهما يكـن معنى ذلك ، لا ادرى اننى اعرف بعقلى ما يجب فعله ، الامر الذى جربته فى هذه القرية مع هؤلاء السعداء ولكن اشياء مبهمة فى روحى وفى دمى تدفعني الى مناطق بعيدة تترائى لى ولا يمكن تجاهلها .واحسرتى اذا نشأ ولداى ، احدهما أو كلاهما ، وفيهما جرثومة هذه العدوى عدوى الرحيل »

وتبرز فى الرواية اهم الوان البناء الدرامى : السرد القصصى، انسياب الحكاية ، التداعى النفسى ، الحوار المتنقل بين الواقع حينا والذكريات أحيانا . ولكن الرواية لا تهتم فى نفس الوقت بكلاسيكية التسلسل فى البناء الدرامى ، لا بالحبكة والسرد المباشر او التوقيت والايقاع والعرض والعقدة والحل النهائى .. الخ .

بل ان الرواية تعطى كل هذه الالوان على جرعات محسوبـــة حسابا دقيقا وبخطة محكمة التنفيذ ذات اسلوب فلسفى متميز .

ان رواية الطيب صالح استطاعت بأحكام لا عفوى ان تجســـد بطلها كنموذج حى للريفى وقاد الذهن ، مشتعل الذكاء ، تتلقفـــه ثقافات العصور ، فيجيد هضمها ويحولها الى مادة تبهر الاخرين او تحيلهم نارها رمادا وجثثا ممزقة ، وتصير منه اسطورة خارقـــة تمثل اكثر مما تعنى ، وتكذب اكثر مما تصدق حينما تريد ان توقع السذج فى المصيدة .

واستطاعت الرواية كذلك ، ان تحرك مجاميع شخوصها بمهارة واختيار وتتبع طبيعى ، لا يفتعل الحوادث ولا الحوار:وانما يسوقهما بأطار صادق ومنطقى .

فمحجوب والعمدة وسعيد التاجر ، وود الريس ، وجين موريس، وبكرى ، وبروفسور ماكسويل ، والحاج أحمد ، وان همنـــد وبنت مجذوب ، وحسنة بنت محمود ، كل هؤلاء يتحركون فى افلاكهم ، حول انفسهم وحول الاخرين ، كالشهب والنجوم والاقمار : احاديثهم تنبع من شخصياتهم ، والكلام الذى يرددونه يتصل بوثوق تام باشخاصهم وبالارض التى يعيشون عليها .

فحينما يقول مصطفى سعيد (٠٠ ظللت اطاردها ثلاثة اعوام. كل يوم يشتد توتر وتر القوس ٠ قوافلى ظمأى والسراب يتوهـــج قدماى فى صحراء الشوق ٠٠)

نجد ان بكرى يقول « النصيحة ياود الريس ٠٠ انت لم تعد رجل زواج ٠ انك الان شيخ فى السبعين واحفادك صار لهم اولاد٠٠ الا تستحى كل سنة عروس ؟ الان يلزمك الوقار والاستعداد لملاقـاة الله سبحانه وتعالى »

وحينما يقول برفسور ماكسويل فستركين امام المحكمـــــة « مصطفى سعيد يا حضرات المحلفين انسان نبيل ، استوعب عقلـه حضارة الغرب لكنها حطمت قلبه »

نجد صدى هذا القول باسلوب اخر على لسان محجوب (كان عقلية واسعة ذلك هو الرجل الذى كان يستحق ان يكون وزيراً فى الحكومة لو كان يوجد عدل فى الدنيا) ٠

وهكذا نجد ان الحوار والانتقال والتدرج فى المعنى والانطلاق فى الاوصاف اجزاء مترابطة يكمل بعضها البعض الاخر ، لتصبح اللوحة الفنية بعدئذ متكاملة ومنسقة الالوان بلا شرود او افتعال ٠

لقد طرح المؤلف الطيب صالح حقيقة ثابتة : ابرز ثقافتـه الواسعة فى الادب والشعر والاقتصاد والادارة والقانون بشكل موفق وجذاب كما تمكن من طرح اكبر مجموعة من مشاهداته وتجاربـــه وتجارب الاخرين وادخلها بطريقة ذكية ولبقة فى صلب الروايـــة ٠ فالمسرح والسينما ، والموسيقى ، والازجال الشعبية ومواد القانـون والشعر ، والنوادر والحكايات والامثال الشعبية ، ومراجع الصحافة عبر نصف قرن من الزمن والمعتقدات الدينية والروحانيات ، والتاريخ وطرق الزراعة والرى ، والعلوم الحديثة كلها وغيرها عشرات كانت منارا رائعا فى حقل المعرفة ٠

ان رواية موسم الهجرة الى الشمال ، سيمفونية موسيقيـــة رائعة التركيب والاداء فى الادب السودانى الحديث وملحمة شعرية عالية النفس انسانية اللمحات ٠

المحتوى

www.lisanarb.com

- طبع من الكتاب ٥٠٠٠ نسخة
- صمم الغلاف : الفنان صادق الصائغ
- طبع الكتاب فى مطبعة شفيق - بغداد
- طبع الغلاف فى مطبعة مؤسسة رمزى
- انتهى من طبعه فى ١٩٧٠/١١/١
- يوزعه مكتب دار القلم للتوزيع - بغداد

- حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

PJ-7538-.A98